المكتبة الصوفية

المقامات والأحوال

المسماة التحفة العراقية

تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

(٧٢٨هـ)

ضبط وتقديم

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار
توفيق علي وهبة

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولي
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت: ٥٩٢٢٦٢٠ـ ٥٩٣٨٤١١ / فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com

رقم الإيداع	٢٠٠٤/١٩٠٦٣
الترقيم الدولي I.S.B.N	977-341-169-9


المقامات والأحوال
المسماة التحفة العراقية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذى أنزل القرآن الكريم على سيدنا محمد. ليكون نورا وضياء للسالكين.

والصلاة والسلام على الهادى محمد رسول الله. خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد

فإن المقامات والأحوال من الأعمال القلبية، والأعمال القلبية منازل تربوية تهذيبية تأخذ بالمؤمن إلى مدارج السالكين، والقاصدين.

والدراسات العلمية. تفيد أن علماء الأمة المخلصين. تناولوا الأعمال القلبية والمنازل التصاعدية بكل اهتمام.. لبيان المعالم المضيئة التى استضاء بها السلف الصالح من المتصوفة.

ومن هؤلاء الإمام ابن تيمية — رحمه الله عليه، والإمام ابن القيم، وغيرهما من أئمة السلوك إلى رب العالمين.

وقد ذكر ابن تيمية (المقامات والأحوال) باعتبارهما طريقا من طرق السلوك ومنزلا من منازل القاصدين، ومعلما من معالم الفضائل والمعارف.

والمقامات والأحوال جاءت فى مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، الجزء العاشر. كما جاءت فى مخطوطات كثيرة.

وقد طبعت (المقامات والأحوال) فى طبعات متعددة تحت عنوان: "التحفة العراقية" مع أن هذه التسمية لا توجد فى النص الذى روى عن ابن تيمية. ويبدو أن "المقامات والأحوال" التى جاءت عن سلف الأمة. تقض مضاجع الغنوصيين الإرهابيين الذين يكفرون علماء الأمة. وكأنى بهم يريدون أن يجردوا الأمة الإسلامية من كل علمائها. ولم يبق عالم إلا وقد صار عند هؤلاء الغنوصيين مبتدعا أو كافرا أو زنديقا.

وهناك جامعات عكفت منذ نشأت على تجريد الأمة من عقائدها وقيمها فعقيدة التوحيد حرفت وبدلت.

وحسبك — أيها القارئ — أن تطالع رسائل "الماجستير والدكتوراه" فى جامعات

هؤلاء. فتجدها قد ألقت بحقدها على المعالم الإنسانية، وكفرت المجتمعات الإسلامية، وتقول عن هذه المجتمعات: إنها أكفر من الكفرة.

وقد كان الناس فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية يعرفون أهل السنة بأنهم الأشاعرة والماتريدية. الذين عملوا على رد الهجمات الشرسة التى تحاول أن تنال من عقائد المسلمين. فجاء الغنوصيون المعاصرون فسرقوا مفهوم أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية، وأخذوه عنوانا لهم. ليتم لهم غزو مجتمعات المسلمين تحت هذا المسمى.

وقد كان الناس فى ازدهار المجتمعات الإسلامية يعرفون علماء التصوف بأنهم على مذهب السلف. فجاء هؤلاء الشكليون فأخذوا اسم السلف ووضعوه عنوانا لهم. لتتم لهم السيطرة والقضاء على ما بقى للأمة من تراث.

ومن يطالع جميع كتب التراث الإسلامى ومخطوطات المسلمين فى خزائن مكتبات العالم. يجد أن التسمية بأهل السنة لازمت الأشاعرة والماتريدية وعلماء الكلام.

كما أن التسمية بالسلف الصالح لازمت الصوفية. ومن يطالع مؤلفات الحكيم الترمذى، والإمام عبد الوهاب الشعرانى، والإمام عبد القادر الجيلانى وغيرهم من شيوخ الإسلام. يجد أن رسائلهم زاخرة بمرويات السلف. ومما يحز فى نفوس الغيورين، ويزيد فى ألمهم أن جامعات إسلامية شغلت نفسها على مدى ثلاثين عاما أو أكثر على تكفير المجتمعات والعمل على قطع رقاب المبتدعة والكفار.

وهذا قد زاد من لهيب الإرهاب، وأجج النيران، وأشعل الفتن فى المجتمعات الإنسانية.

وكتاب: "المقامات والأحوال" الذى نقدمه للقارئ،والباحث، والعاقل. جاء ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. الجزء العاشر وكتاب "المقامات والأحوال" جاء فيه من الأعمال القلبية:

ـــ الحال	ـــ المقام	ـــ الوجد.	ـــ الذوق
ـــ السكر	ـــ الغناء.	ـــ الاصطلام.	

والأعمال القلبية التى ذكرها ابن تيمية. فى كتابه: "المقامات والأحوال" ذكرها أيضا كثير من علماء الأمة الذين صنفوا فى التفسير، والحديث، والسلوك إلى رب العالمين.

وقد بدا لنا أن نقدم للقارئ المسلم بعض مؤلفات ابن تيمية — رحمه الله — التى جاءت فى الأعمال القلبية. حتى يتبين للقارئ والباحث وجه الصواب.

وفى كتاب "المقامات والأحوال" ذكر ابن تيمية أسماء كثير من أئمة التصوف منهم إبراهيم ابن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبو سليمان الدارانى، ومعروف الكرخى، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشى، وذو النون المصرى، وغيرهم. وهذا له إشارات ودلائل كثيرة.

وإذا كانت الغنوصية عملت على إنشاء مذاهب هدامة وإرهابية مثل البابية فى حضن الاستعمار الروسى، والقاديانية فى لهيب الاستعمار الإنجليزى، فإنها عملت على صنع مذاهب إرهابية لإشاعة الفوضى والاضطرابات والفتن والقلاقل، والعمل — كما فى رسائل الماجستير والدكتوراه فى جامعات إسلامية — على قطع رءوس الحكام وولاة الأمر، وجعل الإسلام شكلا من الأشكال ورسما من الرسوم.

ولعلنا ندرك أن عداء الغرب للمسلمين الذى نشا فى هذه الأيام. سببه هؤلاء الإرهابيين الذين أضروا بمجتمعاتهم ومجتمعات الناس أجمعين.

ينبغى على الناس أن يأخذوا على أيدى هؤلاء المشبهة والمجسمة، والذين أساءوا إلى المسلمين وغير المسلمين.

ومما يجدر أن نذكره أن لكتاب "المقامات والأحوال" أكثر من مخطوط.

— مخطوطة المكتبة الظاهرية فى دمشق فى ٣٢ لوحة وعدد صفحاتها خمس وستون.

— ونسخة مخطوطة بدار الكتب القومية فى مصر، بالقاهرة، تحت رقم ٢٧١ تصوف تيمور.

— ومخطوط مكتبة الأوقاف العامة. ببغداد. ضمن مجموع ٤٧٦٧/٣٢ مجاميع.

— وقد يكون واضحا أن الكتاب مفيد. لأنه يصحح كثيرا من المفاهيم المغلوطة ويضع حدا لقلب الحقائق.

والله ولى التوفيق



بسم الله الرحمن الرحيم

النص المحقق لكتاب المقامات والأحوال

الحمد لله. نستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضل، ومن يضلل فلا هادي له.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

أما بعد:

فهذه كلمات مختصرة في أعمال القلوب التي قد تسمى "المقامات والأحوال"، وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل: محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك اقتضى ذلك بعض من أوجب الله حقه من أهل الإيمان واستكتبها وكل منا عجلان.

فأقول: هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين باتفاق أئمة الدين.

والناس فيها على ثلاث درجات، كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومتقصد، وسابق بالخيرات.

فالظالم لنفسه: العاصي بترك مأمور أو فعل محظور.

والمقتصد: المؤدي للواجبات، والتارك للمحرمات.

والسابق بالخيرات: المقترب بما يقدر عليه من واجب ومستحب، والتارك للمحرم والمكروه.

وإن كان كل من المقتصد والسابق قد تكون له ذنوب تمحى عنه إما بتوبة -والله يحب التوابين المتطهرين-، وإما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفرة، وإما بغير ذلك.

وكل من الصنفين: المقتصدين والسابقين من أولياء الله، وإن أولياء الله: هم الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

تَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾[1]، فحد أولياء الله؛ هم المؤمنون المتقون، ولكن ذلك ينقسم إلى عام: وهم المقتصدون، وخاص: وهم السابقون، وإن كان السابقون على درجات كالأنبياء والصديقين، وقد ذكر النبي ﷺ القسمين في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى: من عاد لي وليًا بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألنى لأعطيته، ولئن استعاذني لأعذينه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه**».

وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان: فمعه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره، إذ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب، والسيئات المقتضية للعقاب، حتى يمكن أن يثاب ويعاقب، وهذا قول جميع أصحاب رسول الله ﷺ، وأئمة الإسلام، وأهل السنة والجماعة، الذين يقولون: إنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وأما القائلون بالتخليد، من الخوارج، والمعتزلة القائلون بأنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل القبلة، وأنه لا شفاعة للرسول، ولا غيره في أهل الكبائر لا قبل دخول النار ولا بعدها.

فعندهم لا يجتمع في الشخص الواحد ثواب، وعقاب، وحسنات، وسيئات. بل من أثيب لم يعاقب، ومن عو. **يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابًا**»

فأخبر النبي ﷺ: أن الصدق أصل يستلزم البر، وأن الكذب يستلزم الفجور، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾[2]، ولهذا كان بعض المشائخ إذا أمر بعض متبعيه بالتوبة، وأحب أن لا ينفره ويتعب قلبه، أمره بالصدق، ولهذا يكثر في

---

(١) سورة يونس: الآية رقم ٦٢، ٦٣.

(٢) سورة الانفطار: الآية رقم ١٣، ١٤.

كلام مشائخ الدين، وأئمته ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولوا: قل لمن لا يصدق لا يتبعنا.

ويقولوا: الصدق سيف الله في الأرض، ما وضع على شيء إلا قطعه.

ويقول يوسف بن أسباط وغيره: ما صدق الله عبد إلا صنع له، وأمثال هذا كثير.

والصدق والإخلاص هما في الحقيقة تحقيق الإيمان والإسلام، فإن المظهرين للإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق، فأساس النفاق الذي ينبني عليه هو الكذب، ولهذا إذا ذكر الله حقيقة الإيمان نعته بالصدق، كما في قوله: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[2].

فأخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان، هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم ريبة وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[3].

قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ليؤمنن به ولينصرنه، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ

---

(١) سورة الحجرات: الآية رقم ١٤، ١٥.

(٢) سورة الحشر: الآية رقم ٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية رقم ٨١.

بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[١].

فذكر سبحانه أنه أنزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد. لأجل القيام بالقسط، وليعلم الله من ينصره ورسله. ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي، وسيف ينصر، وكفى بربك هاديًا ونصيرًا، والكتاب والحديد. وإن اشتركا في الإنزال، فلا يمنع أن يكون أحدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر، حيث نزل الكتاب من الله. كما قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[٤].

والحديد أنزل من الجبال التي يخلق فيها، وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هم جماع الإيمان في قوله: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[٥].

وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب في آيات متعددة، كقوله تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ

---

(١) سورة الحديد: الآية رقم ٢٥.

(٢) سورة الزمر: الآية رقم ١.

(٣) سورة هود: الآية رقم ١.

(٤) سورة النمل: الآية رقم ٦.

(٥) سورة البقرة: الآية رقم ١٧٧.

(٦) سورة البقرة: الآية رقم ١٠.

(٧) سورة المنافقون: الآية رقم ١.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[1]، ونحو ذلك في القرآن كثير.

ومما ينبغي أن يعرف: أن الصدق والتصديق، يكون في الأقوال والأعمال، كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**كتب على ابن آدم حظه من الزنا، فهو مدرك ذلك لا محالة، فالعينان تزنيان وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما السمع، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**».

ويقال: حملوا على العدو حملة صادقة. إذا كانت إرادقم للقتال ثابتة جازمة. ويقال: فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك. ولهذا يريدون بالصادق، الصادق في إرادته وقصده وطلبه، وهو الصادق في عمله، ويريدون الصادق في خبره وكلامه,

والمنافق ضد المؤمن الصادق، وهو الذي يكون كاذبًا في خبره أو كاذبًا في عمله، كالمرائي بعمله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾[2].

وأما الإخلاص لله فهو حقيقة الإسلام. إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره. كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]. فمن لم يستسلم لله فقد استكبر، ومن استسلم له ولغيره فقد أشرك.

وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام، والإسلام ضد الكبر والشرك، ويستعمل لازمًا ومتعديًا. كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[4]،

---

(١) سورة التوبة: الآية رقم ٧٧.

(٢) سورة النساء: الآية رقم ١٤٢، ١٤٣.

(٣) سورة الزمر: الآية رقم ٢٩.

(٤) سورة البقرة: الآية رقم ١٣١.

وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١]، وأمثال ذلك في القرآن كثير.

ولهذا كان عنوان الإسلام. شهادة أن لا إله إلا الله. وهي متضمنة عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين دينا سواه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٣].

وهذا الذي ذكرناه مما يبين أن أصل الدين في الحقيقة: هي الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**».

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن النعمان عن بشير عن النبي ﷺ: «**الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل حمى.ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد كله، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب**».

وعن أبي هريرة قال: «القلب ملك، والأعضاء جنوده. فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبث جنوده».

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ١١٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية رقم ٨٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية رقم ١٨، ١٩.

فصل

في حق العامة والخاصة

وهذه الأعمال الباطنية. كمحبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، والرضا عنه، ونحو ذلك. كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة، لا يكون تركها محموداً في حال أحد، وإن ارتقى مقامه.

وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2]، وكقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[5]، وأمثال ذلك كثير.

وذلك لأنه لا يجلب منفعة، ولا يدفع مضرة. فلا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه. لا يأمر الله به. نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم، كما يُحزن على المصائب. كما قال النبي ﷺ: «**إن الله لا يؤاخذ بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يؤاخذ على هذا ويرحم وأشار بيده إلى لسانه**» وقال ﷺ: «**تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب**»، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[6].

وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه. ويكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن؛ كالحزين على مصيبة في دينه، وعلى مصائب المسلمين عموماً، فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير، وبغض الشر وتوابع ذلك.

---

(١) سورة آل عمران: الآية رقم ١٣٩.
(٢) سورة النحل: الآية رقم ١٢٧.
(٣) سورة التوبة: الآية رقم ٤٠.
(٤) سورة يونس: الآية رقم ٦٥.
(٥) سورة الحديد: الآية رقم ٢٣.
(٦) سورة يوسف: الآية رقم ٨٢.

ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد، وجلب منفعة ودفع مضربة نُهي عنه، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن.

وأما إذا أفضى إلى ضعف القلب، واشتغاله به عن فعل ما أمر الله به ورسوله، كان مذمومًا عليه من تلك الجهة، وإن كان محمودًا من جهة أخرى.

وأما المحبة لله، والتوكل عليه، والإخلاص له، ونحو ذلك، فهذه كلها خير محض، وهي حسنة محبوبة في حق كل النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين. ومن قال: إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة. فقد غلط في ذلك. وإن أراد الخروج الخاصة عنها، فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط، وإنما يخرج عنها كافر منافق.

وقد تكلم بعضهم في ذلك كلام بيِّنًا غلطه فيه، وأنه تقصير في تحقيق هذه المقامات من مدة بكلام مبسوط وليس هذا موضعه.

ولكن هذه المقامات. ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم. فللخاصة خاصها وللعامة عامها، مثل ذلك؛ أن هؤلاء قالوا: التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت، والخاص لا يناضل عن نفسه.

وقالوا: المتوكل يطلب بتوكله أمرًا من الأمور، والعارف يشهد الأمور مفروغًا منها فلا يطلب شيئًا.

فيقال: أما الأول. فإن التواكل أعم من التوكل في مصالح الدين أو الدنيا، فإن التوكل يتوكل على الله سبحانه في صلاح قلبه، ودينه، وحفظه إيمانه، وزيادته. وهذا أهم الأمور إليه، ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]، كما في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[2]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[3]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[4].

---

(١) سورة الفاتحة: الآية رقم ٥.
(٢) سورة هود: الآية رقم ١٢٣.
(٣) سورة هود: الآية رقم ٨٨.
(٤) سورة الرعد: الآية رقم ٣٠.

فهو قد جمع بين العبادة، والتوكل في عدة مواضع؛ لأن هذين يجمعان الدين كلـــه. ولهذا قال من السلف: إن الله جمع الكتب المنـــزلة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصل، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب، وجمع علم فاتحة الكتـــاب في قولـــه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[(١)].

وهاتان الكلمتان هما الجامعتان اللتان للرب والعبد، كما جاء في الحديث الصحيـــح الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول سبحانه وتعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل**، قال رسول ﷺ: **يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، يقول الله: حمدني عبدي، يقول: الرحمن الرحيـم، يقول الله: أثنى عليَّ عبدي، يقول: مالك يوم الدين، يقول الله: مجدني عبـــدي، يقـــول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين، يقول الله: فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبـــدي ما سأل، يقول العبد: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذيـــن أنعمـــت عليـــهم غـــير المغضوب عليهم ولا الضالين، يقول الله: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل**».

فالرب سبحانه له نصف الثناء والخير، والعبد له نصف الدعاء والطلـــب، وهاتـــان جامعتان ما للرب سبحانه وما للعبد. فإياك نعبد للرب، وإياك نستعين للعبد.

وفي الصحيحين عن معاذ ﷺ قال: «كنت رديف النبي ﷺ فقال: **يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **إن حق الله على عباده أن يعبـدوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟** قلت: الله ورسوله أعلـم، قال: **حقهم عليه أن لا يعذبهم**».

والعبادة هي: الغاية التي خلق الله لها العباد من جهة أمر الله، ومحبته ورضاه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[(٢)]، وبها أرسل الله الرســـل، وأنـــزل الكتب، وهي اسم يجمع كمال الحب ونهايته، وكمال الذل لله ونهايته، فالحب الخلي عـــن ذلك، والذل الخلي عن الحب. لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين.

---

(١) سورة الفاتحة: الآية رقم ٥.

(٢) سورة الذاريات: الآية رقم ٥٦.

ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله، وهي وإن كانت منفعتها للعبد، والله غني عن العالمين، فهي له من جهة محبته له ورضاه بها، ولهذا كان الله أشد فرحًا بتوبة العبد من الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه في أرض دوية مهلكة، إذ نام آيسًا منها، ثم استيقظ فوجدها، فالله أشد فرحًا بتوبة عبده من هذا براحلته وهذا يتعلق به أمور جليلة قد بسطناها وشرحناها في غير هذا الموضع.

والتوكل والاستعانة للعبد؛ لأنه هو الوسيلة والطريق الذي ينال به مقصوده من العبادة. فالاستعانة كالدعاء والمسألة.

وقد روى الطبراني في كتاب الدعاء عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: يا ابن آدم إنما هي أربع: واحدة لي وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين خلقي، فأما التي هي لي، فتعبدني ولا تشرك به شيئًا، وأما التي هي لك، فعملك أجازيك به أحوج ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك، فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة، وأما التي بينك وبين خلقي، فأت إلى الناس ما تحب أن يأتوه إليك**».

وكون هذا للرب وهذا للعبد، هو باعتبار تعلق المحبة والرضا ابتداء، فإن العبد ابتداء يحب ويريد ما يراه ملائمًا له والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة في رضاه، وحبه الوسيلة تبعًا لذلك، وإلا فكل مأمور به فمنفعته عائدة على العبد، وكل ذلك يحبه الله ويرضاه، وعلى هذا فالذي ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا، وهو غلط بل التوكل في الأمور الدينية أعظم.

وأيضًا فالأمور الدينية التي لا تتم الواجبات أو المستحبات إلا بها هي من الدين، والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمره به ويرضاه.

والزهد المشروع: هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة، وهي فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله، كما أن الورع المشروع: هو ترك ما قد يضر في الدار الآخرة وهو ترك المحرمات، والشبهات التي لا يستلزم تركها ترك ما فعله أرجح منه؛ كالواجبات.

فأما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه أو يعين على ما ينفع في الدار الآخرة. فالزهد فيه ليس من الدين، بل صاحبه داخل في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ

﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[1]، كما أن الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع، فإن اشتغل بها عن واجب أو فعل بها محرمًا كان عاصيًا وإلا كان منقوصًا عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين.

وأيضًا فالتوكل هو محبوب لله مرضي له مأمور به دائمًا، وما كان محبوبًا لله مرضيًا له مأمورًا به دائمًا لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين. فهذه ثلاثة أجوبة عن قولهم: المتوكل لا يطلب حظوظه.

وأما قولهم: إن الأمور قد فرغ منها: فهذا نظير ما قاله بعضهم في الدعاء: (إنه لا حاجة إليه؛ لأن المطلوب إن كان مقدراً فلا حاجة إليه، وإن لم يكن مقدراً لم ينفع لدعاء). وهذا القول من أفسد الأقوال شرعًا وعقلاً.

وكذلك قول من قال: (التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة، ولا يدفع به مضرة، وإنما هو عبادة محضة، وأن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض). وهذا وإن كان قاله طائفة من المشايخ، فهو غلط أيضًا، وكذلك قول من قال: (إن الدعاء إنما هو علامة محضة)، فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد، وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية. يمنع أن يتوقف على أسباب مقدرة أيضًا تكون من العبد.

ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور. يقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم، ولهذا كان طرد قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية، وقد سئل النبي ﷺ عن هذا الأصل فأجاب عنه، كما أخرجاه في الصحيحين عن عمران بن حصين قال: «قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أَعُلم أهل الجنة من أهل النار؟! قال: **نعم**، قيل: ففيم العمل؟! قال: **كل ميسر لما خلق له**».

وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال: «كنا في جنازة فيها رسول الله ﷺ ومعه مخصرة، فجعل ينكب بالمخصرة في الأرض. ثم رفع رأسه وقال: **ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من النار أو الجنة إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة**، قال: فقال رجل من القوم: يا نبي الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل، فمن كان من

---

(١) سورة المائدة: الآية رقم ٨٧.

أهل السعادة ليكونن من أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة، قال: **اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له**».

أما أهل السعادة فييسرون للسعادة، وأما أهل الشقاوة فيصيرون للشقاوة، ثم قرأ نبي الله ﷺ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾(١)، أخرجه الجماعة في الصحاح، والسنن والمسانيد.

وروى الترمذي: «أن النبي ﷺ سئل فقيل: يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقى نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: **هي من قدر الله**».

وقد جاء هذا المعنى عن النبي ﷺ في عدة أحاديث، فبين ﷺ أن تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقي، لا ينافي أن تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة، وشقاوة هذا بالأعمال السيئة.

فإنه سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ما هي عليه، وكذلك يكتبها، فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمال الصالحة، والشقي يشقى بالأعمال السيئة. فمن كان سعيدًا يسر للأعمال الصالحة التي تقتضي السعادة، ومن كان شقيًا يسر للأعمال السيئة التي تقتضي الشقاوة، وكلاهما ميسر لما خُلق له، وهو ما يصير إليه من مشيئة الله العامة الكونية التي ذكرها الله سبحانه في كتابه في قوله: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾(٢)، وأما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه، وهو إرادته الدينية التي أمروا بموجبها، فذلك مذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٣).

والله سبحانه قد بيَّن في كتابه، في كل واحدة من الكلمات والأمر، والإرادة، والإذن، والكتاب، والحكم، والقضاء، والتحريم، ونحو ذلك؛ ما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه، وأمره الشرعي، وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية.

---

(١) سورة الليل: الآيات رقم ٥-١٠ .
(٢) سورة هود: الآية رقم ١١٨، ١١٩.
(٣) سورة الذاريات: الآية رقم ٥٦.

مثال ذلك أنه قال في الأمر الديني: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾[٢]، ونحو ذلك. وقال في الكوني: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[٣]، وكذلك قوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[٤]، على أحد الأقوال في هذه الآية.

وقال في الإرادة الدينية: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[٥]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾[٦]، ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾[٧]. وقال في الإرادة الكونية: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[٨]، وقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[٩]، وقال نوح عليه السلام: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾[١٠]، وقال: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[١١].

---

(١) سورة النحل: الآية رقم ٩٠.
(٢) سورة النساء: الآية رقم ٥٨.
(٣) سورة يس: الآية رقم ٨٢.
(٤) سورة الإسراء: الآية رقم ١٦.
(٥) سورة البقرة: الآية رقم ١٨٥.
(٦) سورة النساء: الآية رقم ٢٦.
(٧) سورة المائدة: الآية رقم ٦.
(٨) سورة البقرة: الآية رقم ٢٥٣.
(٩) سورة الأنعام: الآية رقم ١٢٥.
(١٠) سورة هود: الآية رقم ٣٤.
(١١) سورة يس: الآية رقم ٨٢.

وقال في الإذن الديني: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[١]، وقال تعالى في الكوني: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[٢].

وقال في القضاء الديني: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[٣]، أي: أمر. وقال تعالى في الكوني: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾[٤].

وقال تعالى في الحكم الديني: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾[٦]، وقال تعالى في الكوني عن ابن يعقوب: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[٨].

وقال تعالى في التحريم الديني: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾[٩]، وقال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾[١٠] الآية. وقال تعالى في التحريم الكوني: ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[١١]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾[١٢].

---

(١) سورة الحشر: الآية رقم ٥.
(٢) سورة البقرة: الآية رقم ١٠٢.
(٣) سورة الإسراء: الآية رقم ٢٣.
(٤) سورة فصلت: الآية رقم ١٢.
(٥) سورة المائدة: الآية رقم ١.
(٦) سورة الممتحنة: الآية رقم ١٠.
(٧) سورة يوسف: الآية رقم ٨٠.
(٨) سورة الأنبياء: الآية رقم ١١٢.
(٩) سورة المائدة: الآية رقم ٣.
(١٠) سورة النساء: الآية رقم ٢٣.
(١١) سورة المائدة: الآية رقم ٢٦.
(١٢) سورة المعارج: الآية رقم ٢٤، ٢٥.

وقال في الكلمات الدينية: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[١]، وقال تعالى في الكونية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[٢].

ومنه قوله ﷺ المستفيض عنه من وجوه في الصحاح والسنن والمسانيد أنه كان يقول في استعاذته: «**أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر**».

ومن المعلوم أن هذا هو الكوني الذي لا يخرج منه شيء عن مشيئته وتكوينه، وأما كلمات دينه فقد خالفها الفجار بمعصيته.

والمقصود هنا: أنه ﷺ بيَّن أن العواقب التي خلق لها الناس من سعادة وشقاوة ييسرون لها بالأعمال التي يصيرون بها إلى ذلك، كما أن سائر المخلوقات كذلك فهو سبحانه يخلق الولد وسائر الحيوان في الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح واجتماع الماءين في الرحم.

فلو قال الإنسان: أنا أتوكل، ولا أطأ زوجتي. فإن كان الله قد قضى لي بولد وجد وإلا لم يوجد، ولا حاجة إلى وطء، كان أحمق. بخلاف ما إذا وطئ وعزل الماء، فإن عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد إذا شاءه الله؛ إذ قد يسبق بغير اختياره.

وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق فأصبنا سبيًا من العرب، فاشتهينا النساء، واشتدت علينا العزبة وأحببنا العزل، فسألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: **ما عليكم ألا تفعلوا، قد كتب ما هو خالق إلى يوم القيامة**».

وفي صحيح مسلم عن جابر: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارية هي خادمتنا وساقيتنا في النخل، وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل. فقال: **اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها**».

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ١٢٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية رقم ١٣٧.

وهذا مع أن الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الإنسان من غير أبوين كما خلق آدم، ومن خلقه من أب فقط، كما خلق حواء من ضلع آدم القصير، ومن خلقه من أم فقط؛ كما خلق المسيح ابن مريم عليه السلام، لكن خلق ذلك بأسباب أخرى غير معتادة.

وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع، فقد وقع في كثير من دقته كثير من المشايخ المعظمين، يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر به ونهى عنه، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل والتجري مع الحقيقة القدرية.

ويحسب أن قول القائل: ينبغي للعبد أن يكون مع الله كالميت بين يدي الغاسل. يتضمن ترك العمل بالأمر والنهي. حتى يترك ما أمر به ويفعل ما نهي عنه، وحتى يضعف عنده النور والفرقان الذي يفرق به بين ما أمره الله به، وأوجبه ورضي به، وبين ما نهى عنه وأبغضه وسخطه فيسوي بين ما فرق الله بينه، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾[5]، وأمثال ذلك، حتى يفضي الأمر بغلاتهم إلى عدم التمييز بين الأمر بالمأمور الإلهى النبوى الفرقاني الديني الشرعي، الذي دل عليه الكتاب والسنة.

ويبين ما يكون في الوجود من الأحوال التي تجري على أيدي الكفار والفجار، فيشهدون وجه الجمع من جهة أن الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيته، وإرادته العامة، وأنه

(١) سورة الجاثية: الآية رقم ٢١.
(٢) سورة ص: الآية رقم ٢٨.
(٣) سورة القلم: الآية رقم ٣٥، ٣٦.
(٤) سورة الزمر: الآية رقم ٩.
(٥) سورة فاطر: الآيات رقم ١٩-٢٢.

داخل على ملكه، ولا يشهدون وجه الفرق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه والأبرار والفجار والمؤمنين والكافرين، وأهل طاعته الذين أطاعوا أمره الديني.

وأهل معصيته الذين عصوا هذا الأمر الدينى، وهم يستشهدون في ذلك بكلمات مجملة نقلت عن بعض الأشياخ، أو ببعض غلطات بعضهم، وهذا أصل عظيم من أعظم ما يجب الاعتناء به على أهل طريق الله السالكين سبيل الإرادة؛ إرادة الذين يريدون وجهه.

فإنه قد دخل بسبب إهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر، والفسوق، والعصيان ما لا يعلمه إلا الله، حتى يصيروا معاونين على البغي والعدوان للمسلطين في الأرض من أهل الظلم والعلو، كالذين يتوجهون بقلوبهم في معاونة من يهوونه من أهل العلو في الأرض والفساد، ظانين أنهم إذا كانت لهم أحوال أثروا بها في ذلك، كانوا بذلك من أولياء الله، فإن القلوب لها من التأثير أعظم مما للأبدان، لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحًا، وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسدًا.

فالأحوال يكون تأثيرها محبوبًا لله تارة، ومكروهًا لله أخرى. وقد تكلم الفقهاء على وجوب القود على من يقتل غيره في الباطن. حيث يجب القود في ذلك. وهؤلاء يستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الأمر الكوني، ويعدون مجرد خرق العادة لأحدهم بكشف يكشف له، أو بتأثير يوافق إرادته، هو كرامة من الله له، ولا يعلمون أنه في الحقيقة استدراج.

وإنما الكرامة لزوم الاستقامة، وأن الله تعالى لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

فإن كانوا موافقين له فيما أوجبه الله عليهم فهم من المقتصدين، وإن كانوا موافقين فيما أوجبه عليهم وأحبه. فهم من المقربين، مع أن كل واجب محبوب، وليس كل محبوب واجبًا. وأما ما يبتلي الله به عبده من السراء بخرق العادة أو بغيرها أو بالضراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه، بل قد يسعد بها قوم إذا أطاعوه في ذلك، وقد يشقى بها قوم إذا عصوه في ذلك.

---

(١) سورة يونس: الآية رقم ٦٢.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴾(١).

ولهذا كان الناس في هذه الأمور على ثلاثة أقسام:

قسم ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها في طاعة الله.

وقسم يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها في معصيته، كبلعام وغيره. وقسم تكون في حقهم بمنزلة المباحات.

والقسم الأول: هم المؤمنون حقًا؛ المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم، الذي إنما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله، أو لحاجة يستعين بها على طاعة الله.

ولكثرة الغلط في هذا الأصل نهى رسول الله ﷺ عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذي ينفع العبد، فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان**». وفي سنن أبي داود: أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فقضى على أحدهما، فقال المقضي عليه: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «**إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل**».

فأمر النبي ﷺ المؤمن أن يحرص على ما ينفعه، وأن يستعين بالله، وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾(٣).

فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته؛ إذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء أنفع له من ذلك، فكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة، وإن كان من جنس المباح.

---

(١) سورة الفجر: الآية رقم ١٥، ١٦.

(٢) سورة الفاتحة: الآية رقم ٥.

(٣) سورة هود: الآية رقم ١٢٣.

قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لسعد: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة التي تضعها في في امرأتك**».

وأخبر النبي ﷺ: أن الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس وهو التفريط فيما يؤمر بفعله، فإن ذلك ينافي القدرة المقارنة للفعل، وإن كان لا ينافي القدرة المتقدمة التي هي مناط الأمر والنهي، فإن الاستطاعة التي توجب الفعل، ويكون بها مقارنة له، ولا تصلح إلا لمقدورها كما ذكرها في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾[1]، وفي قوله: ﴿ وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾[2].

وأما الاستطاعة التي يتعلق بها الأمر والنهي، فتلك قد يقترن بها الفعل وقد لا يقترن، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾[3]، وقول النبي ﷺ لعمران بن حصين: «**صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**».

وهذا الموضع قد انقسم فيه بنو آدم أربعة أقسام:

قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لألوهية الرب سبحانه، الذي أمروا أن يعبدوه، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة، وهو حال كثير من المتفقهة المتعبدة، فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره، يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان، لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجوء إليه والدعاء له، هي التي تقوي العبد وتيسر عليه الأمور. ولهذا قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوي الناس فليتوكل على الله.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ صفته في التوراة: إنا أرسلناك شاهدًا، ومبشرًا، ونذيرًا، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة،

---

(١) سورة هود: الآية رقم ٢٠.
(٢) سورة الكهف: الآية رقم ١٠١.
(٣) سورة آل عمران: الآية رقم ٩٧.

ويعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفتح بك أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا. بأن يقولون: لا إله إلا الله.

ولهذا روي: أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم: لا حول ولا قوة إلا بالله. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ سورة أنها كتر من كنوز الجنة، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[3].

قالها إبراهيم الخليل حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: قد جمعوا لكم.

وقسم ثان يشهدون ربوبية الحق, وافتقارهم إليه, ويستعينون به، لكن على أهوائهم وأذواقهم غير ناظرين إلى حقيقة أمره, ونهيه, ورضاه, وغضبه, ومحبته, وبغضه، وهذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة.

ولهذا كثيرًا ما يعملون علي الأحوال التي يتصرفون بها في الوجود ولا يقصدون ما يرضي الرب سبحانه ويحبه، وكثيرًا ما يغلطون فيظنون أن معصيته هي مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهي، وقد يسمون هذا حقيقة, ويظنون أن هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التي هي تحري مرضاة الرب سبحانه وتعالى، ومحبته وأمره ونهيه ظاهراً وباطنًا.

وهؤلاء كثيرًا ما يسلبون أحوالهم، وقد يعودون إلى أنواع من المعاصي والفسوق بل كثيرًا منهم يرتد عن الإسلام؛ لأن العاقبة للتقوى، ومن لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من

---

(١) سورة الطلاق: الآية رقم ٣.

(٢) سورة آل عمران: الآيات رقم ١٧٣-١٧٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية رقم ١٧٣.

المتقين، فهم يقعون في بعض ما وقع فيه المشركون. تارة في بدعة يظنونها شرعية، وتارة في الاحتجاج بالقدر على الأمر.

والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين في سورة الأنعام والأعراف ذكر ما ابتدعوه في الدين وجعلوه شرعة. كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقد ذمهم على أن حرموا ما لم يحرم الله، وأن شرعوا ما لم يشرعه الله، وذكر احتجاجهم بالقدر في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾[2], ونظيرها في النحل ويس والزخرف، وهؤلاء يكون فيهم شبه منهم في هذا وهذا.

وأما القسم الثالث: وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانته به. فهؤلاء شر الأقسام.

والقسم الرابع: هو القسم المحمود، وهو حال الذين حققوا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[3]، وقوله: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[4], فاستعانوا به على طاعته، وشهدوا أنه إلههم الذي لا يجوز أن يعبدوا إلا إياه بطاعته وطاعة رسوله، وأنه ربهم الذي ليس لهم من دونه ولي, ولا شفيع. وأنه: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾[5]، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ ﴾[6]، ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ﴾[7].

---

(١) سورة الأعراف: الآية رقم ٢٨.
(٢) سورة الأنعام: الآية رقم ١٤٨.
(٣) سورة الفاتحة: الآية رقم ٥.
(٤) سورة هود: الآية رقم ١٢٣.
(٥) سورة فاطر: الآية رقم ٢.
(٦) سورة يونس: الآية رقم ١٠٧.
(٧) سورة الزمر: الآية رقم ٣٨.

ولهذا قال طائفة من العلماء: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشـــرع، وإنمـــا التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع.

فقد تبين أن من ظن التوكل من مقامات عامة أهل الطريق فقد غلط غلطًا عظيمًـــا، وإن كان قائل ذلك من أعيان المشايخ كصاحب "علل المقامات" وهو من أجل المشايخ.

وأخذ ذلك عنه صاحب "محسن المجالس"، وأظهر ضعف حجته من، قال ذلك لظنـــه أن المطلوب به حظ العامة فقط، وظنه أنه لا فائدة له من تحصيل المقصود، وهذه حال مـــن جعل الدعاء كذلك.

وذلك بمنزلة من جعل الأعمال المأمور بها كذلك، كمن اشتغل بالتوكل عما يجـــب عليه من سائر الأسباب التي هي عبادة وطاعة مأمور بها، فإن غلط هذا في ترك الأســـباب المأمور بها التي هي داخلة في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[(1)] كغلـــط الأول في ترك التوكل المأمور به؛ الذي هو داخل في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[(2)].

لكن يقال: من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فـــهو مـــن العامة، وإن كان في حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة، كما أن مـــن دعـــاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه.

ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله، بل خارج عن حقيقة الإيمان، فكيف يكون هذا المقام للعامة دون الخاصة. قال الله تعـــالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[(3)]، وقال تعـــالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[(4)]، وقال تعـــالى: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ

---

(١) سورة هود: الآية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة هود: الآية رقم ١٢٣ .

(٣) سورة يونس: الآية رقم ٨٤، ٨٥.

(٤) سورة آل عمران: الآية رقم ١٦٠.

حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[1]،وقد ذكر الله هذه الكلمة﴿ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ في جلب المنفعة تارة، وفي دفع المضرة تارة أخرى.

فالأولى في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[2].

والثانية في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[3]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[5]، يتضمن الأمر بالرضا والتوكل، والرضا والتوكل يكتنفان المقدور، فالتوكل قبل وقوعه والرضا بعد وقوعه.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الصلاة: «**اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع، اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلي وجهك الكريم، وأسألك الشوق إلي لقائك، من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**» رواه أحمد والنسائي من حديث عمار بن ياسر.

وأما ما يكون قبل القضاء، فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا. ولهذا كان طائفة من المشايخ يعزمون علي الرضا قبل وقوع البلاء، فإذا وقع انفسخت عزائمهم، كما يقع نحو ذلك في الصبر وغيره، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ

---

(١) سورة الزمر: الآية رقم ٣٨.

(٢) سورة التوبة: الآية رقم ٥٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية رقم ١٧٣.

(٤) سورة الأنفال: الآية رقم ٦٢.

(٥) سورة التوبة: الآية رقم ٥٩.

فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[٢].

نزلت هذه الآية لما قالوا: لو علمنا أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله آية الجهاد فكرهه من كرهه، ولهذا كره للمرء أن يتعرض للبلاء، بأن يوجب علي نفسه ما لا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك، أو يطلب ولاية، أو يقدم على بلد فيه طاعون، كما في «الصحيحين» عن النبي ﷺ من غير وجه أنه نهي عن النذر، وقال: «**إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل**».

وثبت في «الصحيحين» أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة: «**لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك**».

وثبت عنه في «الصحيحين» أنه قال في الطاعون: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه**».

وثبت في «الصحيحين» أنه قال: «**لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**».

وأمثال ذلك مما يقتضي أن الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء ويحرم عليه أشياء ويحرم عليه أشياء، فيبخل بالوفاء كما يفعله كثيرًا ممن يعاهد الله عهودا علي أمور.

وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود. ويقتضي أن الإنسان إذا ابتلى فعليه أن يصبر ويثبت، ولا يكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات. ولا بد من جميع ذلك من الصبر.

ولهذا كان الصبر واجبًا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات، وترك المحظورات.

---

(١) سورة آل عمران: الآية رقم ١٤٣.

(٢) سورة الصف: الآيات رقم ٢-٤.

ويدخل في الصبر علي المصائب عن أن يجزع، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه.

وقد ذكر الله سبحانه الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضوعا وقرنه بالصلاة في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾(١)، وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾(٢)، وقوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٣)، ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾(٤)، ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾(٥).

وجعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(٦).

فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل به لا بد فيه من اليقين والصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلي الصبر، كما قال معاذ بن جبل ﷺ: «عليكم بالعلم، فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته خشيته، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح. به يعرف الله ويعبد، وبه يمجد الله ويوحد، ويرفع الله بالعلم أقواما يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم، وينتهون إلى رأيهم». فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولا بد في الجهاد من الصبر.

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾(٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ٤٥.

(٢) سورة البقرة: الآية رقم ١٥٣.

(٣) سورة هود: الآية رقم ١١٤، ١١٥.

(٤) سورة طه: الآية رقم ١٣٠.

(٥) سورة غافر: الآية رقم ٥٥.

(٦) سورة السجدة: الآية رقم ٢٤.

(٧) سورة العصر: الآية رقم ١-٦.

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[1].

فالعلم النافع هو أصل الهدي، والعمل بالحق هو الرشاد، وضد الأول الضلال، وضد الثاني الغي. فالضلال العمل بغير علم، والغي اتباع، والغي اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[2]، فلا ينال الهدي إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر.

ولهذا قال علي ﷺ: (ألا إن الصبر من الإيمان بمترلة الرأس من الجسد. فإذا انقطع الرأس بان الجسد -ثم رفع صوته- فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له).

وأما الرضا: فقد تنازع العلماء، والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد، وغيرهم في الرضا بالقضاء، هل هو واجب أو مستحب؟ علي قولين، فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين.

قال الحسن البصري: الرضا عزيز. لكن الصبر معول المؤمن. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال لابن عباس: «**إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطيع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا**».

ولهذا لم يجيء في القرآن إلا مدح الراضين. لا إيجاب ذلك، وهذا في الرضا بما يفعله الرب بعبده من المصائب. كالمرض، والفقر، والزلزال، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ ﴾[4].

فالبأساء في الأموال، والضراء في الأبدان، والزلزال في القلوب.

وأما الرضا بما أمر الله به. فأصله واجب، وهو من الإيمان، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيًا**»، وهو من توابع المحبة كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة ص: الآية رقم ٤٥.
(٢) سورة النجم: الآية رقم ١، ٢.
(٣) سورة البقرة: الآية رقم ١٧٧.
(٤) سورة البقرة: الآية رقم ٢١٤.

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[4].

ومن النوع الأول ما رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «**من سعادة ابن آدم استخارته لله، ورضاه بما قسم الله له، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته لله، وسخطه بما يقسم الله له**».

وأما الرضا بالمنهيات من الكفر والفسوق والعصيان. فأكثر العلماء يقولون: لا يشرع الرضا بهذه كما لا يشرع محبتها، فإن الله سبحانه لا يحبها ولا يرضاها، وإن كان قد قدرها وقضاها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[6]، بل يسخطها كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[7].

وقال طائفة: ترضي من جهة كونها مضافة إلى الله خلقًا، وتسخط من جهة كونها مضافة إلى العبد فعلاً وكسبًا، وهذا القول لا ينافي الذي قبله بل هما يعودان إلى أصل واحد. وهو سبحانه إنما قدر الأشياء وكونها لحكمة، فهي لاعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية، وقد تكون في نفسها مكروهة ومسخوطة، إذ الشيء الواحد يجتمع فيه وصفان: يحب من أحدهما

---

(١) سورة النساء: الآية رقم ٦٥.
(٢) سورة التوبة: الآية رقم ٥٩.
(٣) سورة محمد: الآية رقم ٢٨.
(٤) سورة التوبة: الآية رقم ٥٤.
(٥) سورة البقرة: الآية رقم ٢٠٥.
(٦) سورة الزمر: الآية رقم ٧.
(٧) سورة محمد: الآية رقم ٢٨.

ويكره من الآخر، كما في الحديث الصحيح: «**ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه**».

وأما من قال بالرضا بالقضاء الذي هو وصف الله وفعله لا بالمقضي الذي هو مفعوله فهو خروج منه عن مقصود الكلام، فإن الكلام ليس في الرضا بما يقوم بذات الرب تعالى من صفاته وأفعاله. وإنما الكلام في الرضا بمفعولاته. والكلام فيما يتعلق بهذا قد بيناه في غير هذا الموضوع.

والرضا وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد، حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا.

ولهذا جاء في الكتاب والسنة: حمد الله على كل حال، وذلك يتضمن الرضا بقضائه، وفي الحديث: «**أول من يدعى إلى الجنة الحامدون الذين يحمدون الله في السراء والضراء**».

وروي عن النبي ﷺ أنه كان إذا أتاه الأمر يسر به قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أتاه الأمر يسوؤه قال: الحمد لله على كل حال**».

وفي «مسند الإمام أحمد» عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «**إذا قبض ولد العبد يقول الله لملائكته: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد**».

ونبينا محمد ﷺ هو صاحب لواء الحمد، وأمته هم الحامدون، الذين يحمدون الله على السراء والضراء، والرضا والحمد على الضراء يوجبه مشهدان:

أحدهما: علم العبد بأن الله سبحانه وتعالى مستوجب لذلك، مستحق له بنفسه. فإنه أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء، وهو العليم الحكيم الخبير الرحيم.

والثاني: علمه أن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه، كما روي مسلم في «صحيحه» وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده، لا يقضي للمؤمن قضاء إلا**

كان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا لـه، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له».

فأخبر النبي ﷺ أن قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء، ويشكر على الرخاء. فهو خير له. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[1] وذكرهما في أربعة مواضع من كتابه.

فأما من لا يصبر على البلاء، ولا يشكر على الرخاء. فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له؛ ولهذا أجيب من أورد على هذا بما يقضي على المؤمن من المعاصي بجوابين.

أحدهما: أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد لا ما فعله العبد، كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[2] أي: من سراء ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[3]، أي من ضراء، وكقوله تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[4]، أي: بالسراء والضراء، كما قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾[6]، فالحسنات والسيئات يرد بها الطاعات والمعاصي.

والجواب الثاني: أن هذا في حق المؤمن الصبار الشكور، والذنوب تنقص الإيمان، فإذا تاب العبد أحبه الله، وقد ترتفع درجته بالتوبة.

كما قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة. فمن قضى له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير: إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة. وذلك أنه بعمل الحسنة فتكون نصب عينه، ويعجب بها، وبعمل السيئة فتكون نصب عينيه. فيستغفر الله ويتوب إليه منها.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية رقم ٥.
(٢) سورة النساء: الآية رقم ٧٩.
(٣) سورة النساء: الآية رقم ٧٩.
(٤) سورة الأعراف: الآية رقم ١٦٨.
(٥) سورة الأنبياء: الآية رقم ٣٥.
(٦) سورة آل عمران: الآية رقم ١٢٠.

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «**الأعمال بالخواتيم**»، والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب:

أن يتوب، فيتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، أو يستغفر الله فيغفر له، أو يعمل حسنات تمحوها، فإن الحسنات يذهبن السيئات، أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويستغفرون له حيًا وميتًا، أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به، أو يشفع فيه نبيه محمد ﷺ، أو يبتليه الله في الدنيا بمصائب تكفر عنه، أو يبتليه في البرزخ بالفتنة والضغطة فيكفر بها عنه، أو يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه، أو يرحمه أرحم الراحمين.

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه، كما قال تعالى فيما يروي عنه رسوله ﷺ «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**».

فإذا كان المؤمن يعلم أن القضاء خير له، إذا كان صباراً شكوراً، أو كان قد استخار الله تعالى، وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له، كان قد رضي بما هو هير له.

وفي الحديث عن علي ﷺ قال: (إن الله يقضي بالقضاء، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط). ففي هذا الحديث الرضا والاستخارة، فالرضا بعد القضاء والاستخارة قبل القضاء، وهذا أكمل من الضراء والصبر خيرًا له فكيف مع الرضا، ولهذا جاء في الحديث: «**المصاب من حرم الثواب**».

في الأثر الذي رواه الشافعي في «مسنده»: «**أن النبي ﷺ لما مات سمعوا قائلاً يقول: يا آل بيت رسول الله ﷺ إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودركا من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب**».

ولهذا لم يؤمر بالحزن المنافي للرضا قط، مع أنه يكرهه الله، لكن البكاء علي الميت علي وجه الرحمة له حسن مستحب، وذلك لا ينافي الرضا، بخلاف البكاء عليه لفوات حظ الحي منه.

وبهذا يعرف معني قول النبي ﷺ لما بكي على الميت وقال: «**إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**». وأن هذا ليس كبكاء من يبكي على فوات حظه لرحمة الميت.

وقد قيل: إن الفضيل بن عياض لما مات ابنه علي ضحك وقال: رأيت أن الله تعالى قد قضي بقضاء، فأحببت أن أرضي بما قضى الله به.

ويحكي أن رجلاً عزى الحسن بن علي في ولد مات له، وأطنب في مدحه ووصف شمائله. فقال له الحسن: إذا أحب الله ما تكره فيمن نحب رضينا الحالة حال حسن بالنسبة إلي أهل الجزع. وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء، وحمد الله تعالى كحال النبي ﷺ فهذا أكمل، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[1]، فذكر سبحانه تعالى التواصي بالصبر والمرحمة.

والناس أربعة أقسام:

منهم: من يكون فيه صبر بقسوة.

ومنهم: من يكون فيه رحمة بجزع.

ومنهم: من يكون فيه القسوة والجزع.

والمؤمن المحمود الذي يصبر علي يصيبه ويرحم الناس. وقد ظن طائفة من المصنفين في هذا الباب: أن الرضا عن الله من توابع المحبة له، وهذا إنما يتوجه على المأخذ الأول: وهو الرضا عنه لاستحقاقه ذلك بنفسه مع قطع العبد النظر عن حظه، بخلاف المأخذ الثاني: وهو الرضا لعمله بأن المقضي خير له. ثم إن المحبة متعلقة به، والرضا متعلق بقضائه.

ولكن قد يقال في تقرير ما قال هذا المصنف ونحوه: أن المحبة لله تعالى نوعان: محبة له نفسه، ومحبة له، لما منه من الإحسان. وكذلك الحمد له نوعان: حمد له على ما يستحقه بنفسه، وحمد له على إحسانه إلى عبده.

---

(١) سورة البلد: الآية رقم ١٧.

فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة. فأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حـــظ المحبة، ولهذا ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان كما ذكر في المحبة وجود حلاوة الإيمان.

وهذان الحديثان الصحيحان هما أصل فيما يذكر من الوجد، والذوق الإيماني الشرعي دون الضالي البدعي.

ففي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّـــا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا»**.

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: **«ثلاث من كن فيه وجـــد بهـــن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبـــه إلا الله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار»**.

وهذا إنما يتبين بالكلام على المحبة فنقول.

فصل

[محبة الله]

محبة الله، بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان, والدين. كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين.

فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبته، إما عن محبة محمودة، أو عن محبة مذمومة، كما قد بسطنا ذلك في «قاعدة المحبة»[1] من القواعد الكبار، فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هو محبة الله سبحانه وتعالى.

إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحًا، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله تعالى.

فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو كله للذي أشرك**».

وقد ثبت في «الصحيح» حديث الثلاثة الذين هم «**أول من تسعر بهم جهنم: القارئ المرائي، والمجاهد المرائي، والمتصدق المرائي**».

بل إخلاص الدين لله تعالى هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان.

وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطيب القرآن الذي تدور عليه رحاه، قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[2].

---

(١) «قاعدة المحبة» مخطوطة لابن تيمية في مكتبة الظاهرية في دمشق. وتوجد صورة منها في قسم المخطوطات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض تحت رقم ٩٣٣.

(٢) سورة الزمر: الآيات رقم ١-٣.

والسورة كلها عامتها في هذا المعنى كقوله: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[1]، إلى قوله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[2] إلى قوله: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[3]. إلى قوله ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[4]. إلى قوله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[5]. إلى قوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[6]. وقال تعالى فيما قصة من قصة آدم وإبليس أنه قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[7], وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[8].

فبين أن سلطان الشيطان وإغواءه إنما هو لغير المخلصين.

---

(١) سورة الزمر: الآيات رقم ١١-١٥.
(٢) سورة الزمر: الآية رقم ٣٦.
(٣) سورة الزمر: الآية رقم ٣٨.
(٤) سورة الزمر: الآيات رقم ٤٣-٤٥.
(٥) سورة الزمر: الآية رقم ٦٤، ٦٥.
(٦) سورة الزمر: الآية رقم ٦٦.
(٧) سورة ص: الآية رقم ٨٢، ٨٣.
(٨) سورة النحل: الآية رقم ٩٩، ١٠٠.

ولهذا قال في قصة يوسف: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(١)، وأتباع الشيطان هم أهل النار، كما قال تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٢). وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾(٣).

وهذه الآية في حق من لم يتب، ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة، فأخبر أنه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه، وما دونه يغفره لمن يشاء، وأما قوله: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾(٤). فتلك في حق التائبين، ولهذا عمم وأطلق.

وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزلها، وقد أخبر -سبحانه- أن الأولين والآخرين إنما أمروا بذلك في غير موضع، كالسورة التي قرأها النبي ﷺ على أبي لما أمر الله تعالى أن يقرأها عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾(٥).

وهذا حقيقة في قول: «لا إله إلا الله» وبذلك بعث جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾(٦). وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾(٨)، وجميع الرسل افتتحوا دعواتهم بهذا الأصل، كما قال نوح عليه السلام: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾(١)، وكذلك هود وصالح وشعيب

(١) سورة يوسف: الآية رقم ٢٤.
(٢) سورة ص: الآية رقم ٨٥.
(٣) سورة النساء: الآية رقم ٤٨.
(٤) سورة الزمر: الآية رقم ٥٣.
(٥) سورة البينة: الآية رقم ٤، ٥.
(٦) سورة الأنبياء: الآية رقم ٢٥.
(٧) سورة الزخرف: الآية رقم ٤٥.
(٨) سورة النحل: الآية رقم ٣٦.

السلام: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[١]، وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[٢] لا سيما أفضل الرسل اللذين اتخذ الله كليهما خليلا إبراهيم ومحمد صلي الله عليهما وسلم تسليما.

فإن هذا الأصل بينه الله بهما، وأيدهما فيه، ونشره بهما. فإبراهيم-صلوات الله عليه- هو الإمام الذي قال الله فيه: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٣] وفي ذريته جعل الله النبوة والكتاب والرسل بعده فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٤] فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله تعالى، وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا.

كما قال صاحب يس: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٥].

وقال تعالى في قصته بعد أن ذكر ما يبين ضلال من اتخذ بعض الكواكب ربا يعبده من دون الله، قال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٦].

---

(١) سورة الأعراف: الآية رقم ٥٩.
(٢) سورة الأعراف: الآية رقم ٥٩.
(٣) سورة البقرة: الآية رقم ١٢٤.
(٤) سورة الزخرف: الآية رقم ٢٦-٢٨.
(٥) سورة يس: الآيات رقم ٢٢-٢٤.
(٦) سورة الأنعام: الآية رقم ٧٨-٨١.

وقال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[1]، ونبينا ﷺ هو الذي أقام الله به الدين الخالص لله، دين التوحيد، وقمع به أصناف المشركين، ممن كان مشركًا في الأصل، ومن الذين كفروا من أهل الكتاب.

وقال ﷺ فيما رواه الإمام أحمد وغيره: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

وقد تقدم بعض ما أنزل الله تعالى عليه من الآيات المتضمنة التوحيد، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾[2]، إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3]، إلى قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾[4]، إلى ما ذكره الله من قصص الأنبياء في التوحيد وإخلاص الدين لله، إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[6].

---

(١) سورة الممتحنة: الآية رقم ٤.

(٢) سورة الصافات: الآيات رقم ١-٤.

(٣) سورة الصافات: الآيات رقم ٣٥-٣٧.

(٤) سورة الصافات: الآيات رقم ٤٠-٤٢.

(٥) سورة الصافات: الآية رقم ١٥٩, ١٦٠.

(٦) سورة النساء: الآية رقم ١٤٥، ١٤٦.

وفي الجملة.. فهذا الأصل في مثل سورة الأنعام، والأعراف. والنور، وألم، وحم، وطس, والر, وسور المفصل وغير ذلك من السور المكية، ومواضع من السور المدنية كثيرة ظاهرة، هو أصل الأصول وقاعدة الدين،حتى في سورتي الإخلاص: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[١]، و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[٢].

وهاتان السورتان كان النبي ﷺ يقرأ بهما في صلاة التطوع سنة الفجر، وركعتي الطواف. وهما متضمنتان للتوحيد، فأما ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فهي متضمنة للتوحيد العملي الإرادي، وهو إخلاص الدين الله بالقصد والإرادة وهو الذي يتكلم به مشايخ التصوف غالبًا.

وأما سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فمتضمنة للتوحيد القولى العلمي كما ثبت في «الصحيحين» عن عائشة -رضي الله عنها-: «أن رجلاً كان يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في صلاته، فقال النبي ﷺ: **سلوه لم يفعل ذلك؟** فقال: لأنها صفة الرحمن فأنا أحبها. فقال: **أخبروه أن الله يحبه»**.

ولهذا تضمنت هذه السورة من وصف الله سبحانه وتعالى الذي ينفي قول أهل التعطيل، وقول أهل التمثيل ما صارت به هي الأصل المعتمد عليه في مسائل الذات، كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضوع.

وذكرنا اعتماد الأئمة عليها، وعلى ما تضمنته في تفسير «الأحد» «والصمد» كما جاء تفسيره عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، وما دل علي ذلك من الدلائل.

لكن المقصود هنا: هو التوحيد العملي، وهو إخلاص العمل لله، وإن كان أحد النوعين مرتبطًا بالآخر، فلا يوجد أحد من أهل التعطيل والجهمية، وأهل التمثيل المشبهة إلا فيه نوع من الشرك العملي؛ إذ أصل قولهم فيه شرك، وتسوية بين الله وبين خلقه، أو بينه وبين المعدومات.

كما تسوي المعطلة بينه وبين المعدومات في الصفات السلبية التي لا تستلزم مدحًا ولا ثبوت كمال، أو يسوون بينه وبين الناقص من الموجودات في صفات النقص، وكما

(١) سورة الكافرون: الآية رقم ١.

(٢) سورة الإخلاص: الآية رقم ١.

يسوون إذا أثبتوا هم ومن ضاهاهم من الممثلة مساواة بينه وبين المخلوقات في حقائقها، حتى قد يعبدونها، فيعدلون بربهم ويجعلون له أندادًا، ويشبهون المخلوق برب العالمين.

واليهود كثيرًا ما يعدلون الخالق بالمخلوق، ويمثلون به حتى يصفوا الله بالفقر والعجز والبخل ونحو ذلك من النقائص التي يجب تنزيهه عنها، وهي من صفات خلقة.

والنصارى كثيرًا ما يعدلون المخلوق بالخالق، حتى يجعلوا في المخلوق من نعوت الربوبية وصفات الإلهية، ويجوزون له ما لا يصلح إلا للخالق سبحانه، وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرًا.

والله سبحانه وتعالى قد أمرنا بالدعاء والإنابة في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[1], وقد قال النبي ﷺ: **«اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»**.

وفي هذه الأمة من فيه شبه من هؤلاء وهؤلاء. كما قال ﷺ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه.** قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟»**، والحديث في «الصحيحين».

وإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله، وهو إرادة الله وحده، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته. وهذا كمال المحبة، لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة. كقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[3]، وأمثال هذا.

والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودًا، والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبودًا، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[4].

(١) سورة الفاتحة: الآية رقم ٦، ٧.
(٢) سورة الذاريات: الآية رقم ٥٦.
(٣) سورة البقرة: الآية رقم ٢١.
(٤) سورة البقرة: الآية رقم ١٦٥.

فبين سبحانه أن المشركين بربهم الذين يتخذون من دون الله أندادًا وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله فالذين آمنوا أشد حبا لله منهم لله ولأوثانهم؛ لأن المؤمنين أعلم بالله.

والحب يتبع العلم ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده وأولئك جعلوا بعض حبهم له وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب، ومعلوم أن ذلك أكمل قال الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(1).

واسم المحبة فيه إطلاق وعموم، فإن المؤمن يحب الله ويحب رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين، وإن كان ذلك من محبة الله، وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره، فقد جاءت محبة الله سبحانه وتعالى مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة لله والإنابة إليه والتبتل له نحو ذلك.

فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى. ثم إنه كما بين أن محبته أصل الدين. فقد بين أن كمال الدين بكمالها، ونقصه بنقصها، فإن النبي ﷺ قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله».

فأخبر أن الجهاد سنام العمل وهو أعلاه وأشرفه. وقد قال تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(2).

والنصوص في فضائل الجهاد وأهلة كثيرة، وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد والجهاد لازم دليل المحبة الكاملة، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ

(1) سورة الزمر: الآية رقم ٢٩.

(2) سورة التوبة: الآيات رقم ١٩-٢٢.

ﭐللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ ﴾ . وقال سبحانه وتعالى في صفة المحبين المحبوبين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

سورة فوصف المحبوبين بأنهم أذلة علي المؤمنين أعزة على الكافرين، وأنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومه لائم. فإن المحبة مستلزمة للجهاد، ولأن المحب يحب ما يحب محبوبة، ويبغض ما يبغض محبوبة، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضي لرضاه ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك.

وهؤلاء هم الذين يرضي الرب لرضاهم، ويغضب لغضبهم؛ إذ هم إنما يرضون ما يرضاه، ويغضبون لما يغضب له، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر في طائفة: فيهم صهيب، وبلال: «**لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك**».

فقال لهم: يا أخوتي هل أغضبتكم؟

قالوا: لا. يغفر الله لك يا أبا بكر»، وكان قد مر بهم أبو سفيان بن حرب فقالوا: ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها، فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لسيد قريش؟

وذكر أبو بكر ذلك للنبي ﷺ، فقال له: ما تقدم. لأن هؤلاء. إنما قالوا ذلك غضباً لله، لكمال ما عندهم من الموالاة لله ورسوله، والمعاداة لأعدائه.

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح فيما يروي عن ربه عز وجل: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه**».

---

(١) سورة التوبة: الآية رقم ٥٤.

فبين سبحانه أنه يتردد؛ لأن التردد تعارض إرادتين، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه. كما قال: «وأنا أكره مساء ته». وهو سبحانه قد قضي بالموت فهو يريد أن يموت فسمى ذلك.

ثم بين أنه لا بد من وقوع ذلك، وهذا اتفاق واتحاد في المحبوب المرضي المأمور به والمبغض المكروه المنهي عنه.

وقد يقال له: اتحاد نوعي وصفي، وليس ذلك اتحاد الذاتين، فإن ذلك محال ممتنع، والقائل به كافر وهو قول النصارى، والغالية من الرافضة، وجهال النساك كالحلاجية ونحوهم، وهو الاتحاد المقيد في شيء بعينه.

وأما الاتحاد المطلق الذي هو قول أهل وحدة الوجود الذين يزعمون أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق، فهذا تعطيل للصانع وجحود له، وهو جامع لكل شرك، وكما أن الاتحاد نوعان: فكذلك الحلول نوعان: قوم يقولون بالحلول المقيد في بعض الأشخاص، وقوم يقولون بحلوله في كل شيء. وهم الجهمية الذين يقولون: إن ذات الله في كل مكان.

وقد يقع لبعض المصطلمين من أهل الفناء في المحبة أن يغيب بمحبوبه عن نفسه وحبه ويغيب بمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته، وبموجوده عن وجوده. حتى لا يشهد إلا محبوبه، ومذكوره. فيظن في زوال تمييزه، ونقص عقله، وسكره أنه هو محبوبه.

كما قيل: إن محبوبًا وقع في اليم فألقى المحب نفسه خلفه. فقال: أنا وقعت، فأنت ما الذي أوقعك فقال: غبت بك عني. فظننت أنك أنى.

فلا ريب أن هذا خطأ وضلال. لكن إن كان هذا لقوة المحبة والذكر من غير أن يحصل عن سبب محظور زال به عقله. كان معذوراً في زوال عقله، فلا يكون مؤاخذاً بما يصدر منه من الكلام في هذه الحال التي زال فيها عقله بسبب غير محظور.

كما قيل في عقلاء المجانين: إنهم قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً، فسلب عقولهم، وابقي أحوالهم، وأسقط ما فرض بما سلب، وأما إذا كان لا يحكم بكفره في أصح القولين،

كما لا يقع طلاقة في أصح القولين، وإن كان النـزاع في الحكم مشهوراً. وقد بسطنا الكلام في هذا وفي من يسلم له حاله ومن لا يسلم في «قاعدة» ذلك.

وبكل حال. فالفناء الذي يفضي بصاحبه إلي مثل هذا حال ناقص إن كان صاحبه غير مكلف، ولهذا لم يرد مثل هذا علي الصحابة الذين هم أفضل هذه الأمة، ولا على نبينا قبلهم ﷺ وهو أفضل الرسل وإن كان لهؤلاء في صعق موسى عليه السلام نوع تعلق.

وإنما حدث زوال العقل عند الواردات الإلهية على بعض التابعين ومن بعدهم، وإن كانت المحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه في هذه الأمة وولايته وعداوته.

فمن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة، فلابد أن يبغض أعداءه، ولابد أن يحب ما يحبه من جهادهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[1].

والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم، وعذل العاذل، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة. كما قد قال أكثر الشعراء في ذلك، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود، وهم الذين لا يخافون من يلومهم علي ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه، فإن اللائم على ذلك كثير.

وأما الملام علي فعل كرهه الله أو ترك ما أحبه الله، فهو لوم بحق، وليس من المحمود الصبر علي هذا الملام. بل الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله، ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وبين الملامية الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله، ويصبرون على الملام في ذلك.

---

(١) سورة الصف: الآية رقم ٤.

فصل

[الخوف والرجاء]

وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرهما. تستلزم المحبة، وترجع إليها. فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب.

قال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ ﴾[2].

ورحمته: اسم جامع لكل خير، وعذابه: اسم جامع لكل شر. ودار الرحمة الخالصة هي: الجنة، ودار العذاب الخالص: هي النار.

وأما الدنيا فدار استدراج. فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة، فالجنة اسم جامع لكل نعيم، وأعلاه النظر إلى الله عز وجل، كما في «صحيح مسلم» عن ثابت، عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى، عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة نادي مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، وينجينا من النار؟** قال: **فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه**» وهي الزيادة.

ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال: (ما عبدتك شوقا إلى جنتك ولا خوفًا من نارك، وإنما عبدتك شوقًا إلى رؤيتك). فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه. أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات.

---

(١) سورة الإسراء: الآية رقم ٥٧.

(٢) سورة البقرة: الآية رقم ٢١٨.

كما يوافقه على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهمية، أو من يقر بها، ويزعم أنه لا تمتع في نفس رؤية الله، كما يقوله طائفة من المتفقهة، فهؤلاء متفقون على أن مسمى الجنة أو الآخرة. لا يدخل فيه إلا التمتع بالمخلوقات.

ولهذا قال بعض من غلط من المشايخ لما سمع قوله تعالى: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾[1]، قال: فأين من يريد الله؟، وقال آخر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2].

قال: فإذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه؟ وكل هذا لظنهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر إلي الله تعالى، والتحقيق أن الجنة: هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلى ما فيها النظر إلي الله تعالى وهو من النعيم الذي ينالونه وهم في الجنة كما أخبرت به النصوص، وكذلك أهل النار فإنهم محجوبون عن ربهم ثم يدخلون النار.

مع أن هذا القائل إذا كان عارفًا بما يقول. فإنما قصده: أنك لو لم تخلق نارًا و لم تخلق جنة لكان يجب أن تعبد، ويجب ذلك للتمتع بالتقرب إليك، والنظر إليك، ومقصوده بالجنة هنا. ما يتمتع فيه بالمخلوق، أما عمل الحي بغير حب، ولا إرادة أصلاً فهذا ممتنع، وإن تخيله بعض الغالطين من النساك وظن أن كمال العبد: أن لا يبقى له إرادة أصلاً، فذاك لأنه تكلم في حال الفناء.

والفانى الذي يشتغل بمحبوبه له إرادة ومحبه، ولكن لا يشعر بها، فوجود المحبة شيء والإرادة شيء والشعور بها شيء آخر، فلما لم يشعروا بها ظنوا انتفاءها، وهو غلط فالعبد لا يتصور أن يتحرك قط إلا عن حب وبغض وإرادة.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**أصدق الأسماء الحارث وهمام**» فكل إنسان له حرث وهو العمل، وله هم وهو أصل الإرادة ولكن تارة يقوم بالقلب من محبة الله ما يدعوه إلى طاعته،

---

(١) سورة آل عمران: الآية رقم ١٥٢.

(٢) سورة التوبة: الآية رقم ١١١.

ومن إجلاله والحياء منه ما ينهاه عن معصيته كما قال عمر ﷺ: (نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه)، أي: هو لا يعصيه ولو لم يخفه فكيف إذا خافه. فإن إجلاله وإكرامه لله يمنعه عن معصيته.

فالراجي له، فمعلوم أن هذا من توابع محبته له، فالمحبة هي التي أوجبت محبة التجلي والخوف من الاحتجاب، وإن تعلق بعبادة الله المتضمنة لأصل المحبة ثم إنه إذا ذاق حلاوة محبة الله وجدها أحلى من كل محبة، ولهذا يكون اشتغال أهل الجنة بذلك أعظم من كل شيء، كما في الحديث: «**إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس**».

وهذا يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته. فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوقه إلى محبة الله التي هي الأصل, وهذا كله ينبني على أصل المحبة.

فيقال: قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين لربهم، ومحبة الرب لعباده المؤمنين, كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾[3].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار».

بل محبة رسول الله ﷺ والأعمال الصالحة الواجبة وجبت بمحبة الله. كما في قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[4] وكما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**».

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ١٦٥.
(٢) سورة المائدة: الآية رقم ٥٤.
(٣) سورة التوبة: الآية رقم ٢٤.
(٤) سورة التوبة: الآية ٢٤.

وفي «صحيح البخاري» أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء، إلا من نفسي، فقال له: لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك. قال: فوالله لأنت أحب إلي من نفسي. قال: الآن يا عمر».

وكذلك محبة صحابته وقرابته، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**آية الإيمان محبة الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**»، وقال: «**لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر**»، وقال علي ﷺ: «إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إلي أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق».

وفي السنن أنه قال للعباس: «**والذي نفسي بيده، لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتي**» يعني: بني هاشم.

وقد روي حديث عن ابن عباس مرفوعًا. أنه قال: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي**».

وأما محبة الرب سبحانه لعبده، فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٣]، ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[٤]، ﴿ فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٥]، ﴿ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٦]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[٧]، ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٨].

---

(١) سورة النساء: الآية رقم ١٢٥.
(٢) سورة المائدة: الآية رقم ٥٤.
(٣) سورة البقرة: الآية رقم ١٩٥.
(٤) سورة الحجرات: الآية رقم ٩.
(٥) سورة التوبة: الآية رقم ٤.
(٦) سورة التوبة: الآية رقم ٧.
(٧) سورة الصف: الآية رقم ٤.
(٨) سورة آل عمران : الآية رقم٧٦.

وأما الأعمال التي يحبها الله: الواجبات والمستحبة، الظاهرة، والباطنة. فكثيرة معروفة، وكذلك حبه لأهلها، وهم المؤمنون أولياء الله المتقون. وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة والذي عليه سلف الأمة، وأئمتها، وأهل السنة. والحديث وجميع مشايخ الدين المتبعون، وأئمة التصوف. أن الله سبحانه محبوب بحب ذاته محبة حقيقية. بل هي أكمل محبة، فإنها. كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1], وكذلك هو سبحانه وتعالى: يحب ما يحبه من عباده المؤمنين، وما هو في الله محبة حقيقية.

وأنكر الجهمية حقيقة المحبة من الطوفين، زعمًا منهم: أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة.

وكان أو من ابتدع هذا في الإسلام هو: الجعد بن درهم. في أوائل المائة الثانية، فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسط.

خطب الناس يوم الأضحى فقال: يا أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليمًا - تعالى الله عما يقوله الجعد علوا كبيرًا- ثم نزل فذبحه.

وكان قد أخذ هذا المذهب عنه الجهم بن صفوان، فأظهره وناظر عليه، وإليه أضيف قول الجهمية، فقتله سلم بن أحوز. أمير خرسان بها، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة، أتباع عمرو بن عبيد، وظهر قولهم أثناء خلافة الخليفة المتلقب بالمأمون، حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوا إلى الموافقة لهم على ذلك.

وأصل قولهم هذا: مأخوذ عن المشركين، والصابئة من البراهمة، والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب، الذين يزعموا. أن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلاً، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه السلام، وهم يعبدون الكواكب وينون الهياكل للعقول والنجوم وغيرها، وهم ينكرون في الحقيقة أن يكون إبراهيم خليلاً، أو موسى كليمًا. لأن الخلة: هي كمال المحبة المستغرقة للمحب. كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مـ ... وبذا سمي الخليل خليـ

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ١٦٥.

ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله**»، يعني: نفسه.

وفي رواية: «إن الله اتخذنى خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً».

فبين ﷺ أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلاً، وأنه لو يكن ذلك لكان أحق الناس به، أبو بكر الصديق ﷺ، مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصًا، كقوله لمعاذ: «والله إني لأحبك»، وكذلك قوله للأنصار.

وكان زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ وكذلك ابنه أسامة حبه.

وقال له عمرو بن العاص: «أي الناس أحب إليك؟ قال. عائشة. قال: فمن الرجل؟ قال: أبوها.

وقال لفاطمة رضي الله عنها: «يا بنية، ألا تحبين ما أحب؟ قالت: بلى. قال: فأحبى عائشة».

وقال للحسن: « اللهم إني أحبه فأحبه، وأحب من يحبه». وأمثال هذا كثير.

فوصف نفسه بمحبة الأشخاص. وقال: «إني أبرأ إلي كل خليل من خلته، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً. لاتخذت أبا بكر خليلاً».

فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة بحيث هي من كمالها وتخللها المحب حتى يكون المحبوب بها محبوبًا لذاته لا لشيء آخر. إذ المحبوب لشيء غيره، هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير، ومن كمالها لا تقبل الشركة والمزاحمة؛ لتخللها المحب، ففيها كمال التوحيد وكمال الحب.

فالخلة أيضًا: تنافي المزاحمة، أو تقدم الغير بحيث يكون المحبوب محبوبًا لذاته محبة لا يزاحمه فيها غيره، وهذه المحبة لا تصلح إلا الله -تعالى- فلا يجوز أن يشركه غيره فيما يستحقه من المحبة، وهو محبوب لذاته، وكل ما يحب غيره إذا كان محبوبًا بحق فإنما يحب لأجله، وكل ما أحب لغيره فمحبته باطلة، فالدنيا ملعونة معلون ما فيها إلا ما كان لله - تعالى.

وإذا كانت الخلة كذلك، فمن المعلوم أن من أنكر أن يكون الله محبوبًا لذاته ينكر مخاللته. وكذلك أيضًا إن أنكر محبته لأحد من عباده فهو ينكر أن يتخذه خليلاً، بحيث يحب الرب ويحبه العبد على أكمل ما يصلح للعبادة.

وكذلك تكليمه لموسى عليه السلام أنكروه؛ لإنكارهم أن يقوم به صفة من الصفات، أو فعل من الأفعال، فكما ينكرون أن يتصف بحياة أو قدرة أو علم، أو أن يستوي أو يجيء، فكذلك ينكرون أن يتكلم أو يكلم. فهذا حقيقة قولهم: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1].

لكن لما كان الإسلام ظاهرًا، والقرآن متلوا لا يمكن جحده لمن أظهر الإسلام. أخذوا يلحدون في أسماء الله، ويحرفون الكلم عن مواضعه. فتأولوا محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته أو التقرب إليه.

وهذا جهل عظيم. فإن محبة التقرب إلي المتقرب إليه تابع لمحبته وفرع عليها.

فمن لا يحب الشيء لا يمكن أن يحب التقرب إليه؛ إذا التقرب وسيلة، ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلى الشيء هي المحبوب دون الشيء المقصود بالوسيلة، وكذلك العبادة والطاعة.

وإذا قيل في المطاع المعبود: إن هذا يحب طاعته وعبادته فإن محبة ذلك تبع لمحبته، وإلا فمن لا يحب لا تحب طاعته وعبادته، ومن كان لا يعمل لغيره إلا لعوض يناله منه، أو لدفع عقوبة، فإنه يكون معاوضًا له أو مفتديًا منه، لا يكون محبًا له.

ولا يقال: أن هذا يحبه، ويفسر ذلك بمحبته طاعته وعبادته، فإن محبة المقصود وإن استلزمت محبة الوسيلة أو غير محبة الوسيلة، فإن ذلك يقتضي أن يعبر بلفظين: محبة العوض، والسلامة عن محبة العمل، أما محبة الله فلا تعلق لها بمحبة مجرد العوض.

ألا ترى أن من استأجر أجيرًا بعوض لا يقال: إن الأجير يحبه لمجرد ذلك. بل قد يستأجر الرجل من لا يحبه بحال، بل من يبغضه.

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ١١٨.

وكذلك من أفتدى نفسه بعمل من عذاب معذب لا يقال: إنه يحبه، بل يكون مبغضًا له، فعلم أن ما وصف الله به عباده المؤمنين من أنهم يحبونه. يمتنع أن لا يكون معناه إلا مجرد محبة العمل الذي ينالون به بعض الأغراض المخلوقة من غير أن يكون ربهم لا يحب أصلاً.

وأيضًا: فلفظ العبادة متضمن للمحبة مع الذل -كما تقدم- ولهذا كان الحب للبشــر علي طبقات:

أحدها: العلاقة - وهو تعلق القلب بالمحبوب.

ثم الصبابة - وهو انصباب القلب إليه.

ثم الغرام - وهو الحب اللازم.

ثم العشق، وآخر المراتب هو التتيم، وهو التعبد للمحبوب.

والمتيم المعبد، وتيم الله عبد الله.

فإن المحب يبقى قبله معبدًا مذللاً لمحبوبه.

وأيضًا: فاسم الإنابة إليه يقتضي المحبة أيضًا، وما أشبه ذلك من الأسماء كما تقدم.

وأيضًا: فلو كان هذا الذي قالوه حقا لكان ذلك مجازًا لما فيه من الحذف، والإضمار والمجاز لا يطلق إلا بقرينة تبين المراد.

ومعلوم أن ليس في كتاب الله وسنة رسوله. ما ينفي أن يكون الله محبوبًـــــا، وأن لا يكون المحبوب إلا الأعمال. لا في الدلالة المتصلة، ولا المنفصلة. بل في العقل أيضًا.

وأيضًا: فمن علامات المجاز صحة إطلاق نفيه، فيجب أن يصح إطلاق القول: بـــأن الله لا يحَب بفتح الحاء ولا يحِب بكسر الحاء، كما أطلق إمامهم الجعد بن درهــم: أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليمًا. ومعلوم أن هذا ممتنع بإجماع المسلمين.

فعلم دلالة الإجماع على أن هذا ليس مجازًا، بل هي حقيقة، وأيضًا: فقد فرق الله بين محبته ومحبة العمل له، في قولـــه تعـــالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى

سَبِيلِهِۦ ﴾[١]، كما فرق بين محبته رسوله، في قوله تعالى: «أحب إليكم من الله ورسـوله» فلو كان المراد بمحبته ليس إلا محبة العمل. لكان هذا تكريرًا أو من باب عطف الخاص على العام، وكلاهما على خلاف ظاهر الكلام الذي لا يجوز المصير إليه إلا بدلالة تبين المراد.

وكما أن محبته لا يجوز أن تفسر بمجرد محبة لا يجوز أن تفسر بمجرد محبة رسـوله، فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبة العمل له.

وإن كانت محبته تستلزم محبة رسوله، ومحبة العمل به، وأيضًا فالتعبير بمحبة الشـيء عن مجرد طاعته. لا بمحبة نفسه أمر لا يعرف في اللغة. لا حقيقة ولا مجازًا، فحمل الكـلام عليه تحريف محض أيضًا.

وقد قررنا في مواضع من القواعد الكبار. أنه لا يجوز أن يكون غير الله محبوبًا مـرادًا لذاته، كما لا يجوز أن يكون غير الله موجودًا بذاته، بل لا رب إلا الله، ولا إلـه غـيره. والإله: هو المعبود الذي يستحق أن يحب لذاته، ويعظم لذاته، بكمال المحبة والتعظيم.

وكل مولود يولد على الفطرة. فإن الله سبحانه فطر القلوب علـى أنـه ليـس في محبوباتها مراداتها ما تطمئن إليه، وتنتهي إليه إلا الله وحده ، وإلا فكل ما أحبه المحب مـن مطعوم، وملبوس ومنظور، ومسموع، وملموس، يجد في نفسه أن قلبه يطلب شيئًا سـواه ويحب أمرًا غيره يتألهه، ويصمد إليه. ويطمئن إليه ويري ما يشبهه من هذه الأجناس. ولهـذا قال سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[٢].

وفي الحديث الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ عن الله تعالى أنه قـال: «إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهـم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا».

كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد علـى الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء».

---

(١) سورة التوبة: الآية رقم ٢٤.

(٢) سورة الرعد: الآية رقم ٢٨.

ثم يقول أبو هريرة ﷺ اقــرأوا إن شــئتم ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[1]، وأيضًا: فكل ما فطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فإن الله هو المستحق الأعلى الكمال، وكل ما في غيره من محبوب فــهو منه سبحانه وتعالى، فهو المستحق لأن يحب على الحقيقة والكمال وإنكار محبة العبد لربــه، هو في الحقيقة إنكار لكونه إلهًا معبودًا، كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشــيئته، وهو مستلزم إنكار كونه ربًا خالقًا، فصار إنكارها مستلزمًا لإنكار كونه رب العــالمين. ولكونه إله العالمين، وهذا هو قول أهل التعطيل والجحود.

ولهذا اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مأثور، وأحكام عن موسى، وعيســى صلوات الله عليهما وسلامه أن أعظم الوصايا: أن تحب الله بكل قلبك، وعقلك، وقصدك.

وهذا هو حقيقة الحنفية ملة إبراهيم، التي هي أصل شــريعة التــوراة، والإنجيــل، والقرآن، وإنكار ذلك هو مأخوذ عن المشركين والصابئين أعداء إبراهيم الخليــل، ومــن وافقهم على ذلك من متفلسف، أو متكلم، أو متفقه، أو مبتدع، أخذه من هؤلاء، وظــهر ذلك في القرامطة الباطنية من الإسماعيلية، ولهذا قال الخليل إمام الحنفاء -صلوات الله عليــه وســلامه-: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

وقال أيضًا: ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾[3]، وقــال تعــالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[4]، وهو السليم من الشرك.

وأما قولهم: إنه لا مناسبة بين المحدث والقديم توجب محبته له وتمتعه بالنظر إليه. فـهذا الكلام مجمل.

فإن أرادوا بالمناسبة أنه ليس بينهما توالد فهذا حق، وإن أرادوا أنه ليس بينهما مــن المناسبة ما بين الناكح والمنكوح، والأكل والمأكول ونحو ذلك، فهذا أيضًا حق.

---

(١) سورة الروم: الآية رقم ٣٠.

(٢) سورة الشعراء: الآية رقم ٧٥ - ٧٧.

(٣) سورة الأنعام: الآية رقم ٧٦.

(٤) سورة الشعراء : الآية رقم ٨٨، ٨٩.

وإن أرادوا: أنه لا مناسبة بينهما توجب أن يكون أحدهما محبًا عابدًا، والآخر محبوبًا معبودًا، فهذا هو رأس المسألة، فالاحتجاج به مصادرة على المطلوب.

ويكفي في ذلك المنع ثم يقال: بل لا مناسبة تقتضي المحبة الكاملة. إلا المناسبة التي بين المخلوق والخالق. الذي لا إله غيره، الذي هو في السماء إله، وفي الأرض إله وله المثل الأعلى في السموات والأرض.

وحقيقة قول هؤلاء. جحد كون الله معبودًا في الحقيقة، ولهذا وافق علي هذه المسألة طوائف من صوفية المتكلمين الذين ينكرون أن يكون الله محبًا في الحقيقة، فأقروا بكونه محبوبًا ومنعوا كونه محبًا. لأنهم تصوفوا مع ما كانوا عليه من قول أولئك المتكلمة، فأخذوا عن الصوفية مذهبهم في المحبة، وإن كانوا قد يخلطون فيه، وأصل إنكارها إنما هو قول المعتزلة ونحوهم من الجهمية. فأما محبة الرب عبده. فهم لها أشد إنكارًا، ومنكروها قسمان.

قسم يتأولونها بنفس المفعولات التي يحبها العبد، فيجعلون محبته نفس خلقه. وقسم يجعلونها نفس إرادته لتلك المفعولات.

وقد بسطنا الكلام في ذلك في «قواعد الصفات والقدر» وليس هذا موضعها.

ومن المعلوم: أنه قد دل الكتاب والسنة، واتفاق سلف الأمة. علي أن الله يحب ويرضي ما أمر بفعله من واجب ومستحب، وإن لم يكن ذلك موجودًا، وعلي أنه قد يريد وجود أمور يبغضها ويسخطها من الأعيان والأفعال؛ كالفسوق والكفر. وقد قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾(١), وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾(٢).

والمقصود هنا: إنما هو في ذكر محبة العباد لإلههم.

وقد تبين أن ذلك هو أصل أعمال الإيمان، و لم يكن بين أحد من سلف الأمة من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان نزاع في ذلك. وكانوا يحركون هذه المحبة بما شرع الله أن تحرك به من أنواع العبادات الشرعية، كالعرفان الإيماني، والسماع الفرقاني.

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ٢٠٥.

(٢) سورة الزمر: الآية رقم ٧.

قال تعــالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾[1]، ثم إنه لما طال الأمد صار في طوائف من المتكلمة، من المعتزلة، وغيرهم من ينكر هذه المحبة، وصار في بعض المتصوفة من يطلب تحريكها بأنواع من السماع المحدث، كسماع التغبير، وسماع المكاء، والتصدية. فيسمعون من الأقوال، والأشعار ما فيه تحريك جنس الحب الذي يحرك من كل قلب ما فيه من الحب، بحيث يصلح لمحب الأوثان، والصلبان، والغلمان، والإخوان، والأوطان، والمردان، والنسوان.

كما يصلح لمحب الرحمن، ولكن كان الذين يحضرونه من الشيوخ يشترطون له المكان والإمكان والخلان، وربما اشترطوا له الشيخ الذي يحرس من الشيطان، ثم توسع في ذلك غيرهم حتى خرجوا فيه إلي أنواع من المعاصي، بل إلى أنواع من الفسوق، بل خرج فيه طوائف إلي الكفر الصريح، بحيث يتواجدون على أنواع من الأشعار التي فيها الكفر والإلحاد مما هو من أعظم أنواع الفساد.

وينتج لهم ذلك، من الأحوال بحسبه، كما تنتج لعباد المشركين، وأهل الكتاب عباداتهم بحسبها، والذي عليه محققو المشايخ؛ أنه كما قال الجنيد رحمه الله: من تكلف السماع فتن به ، ومن صادفه السماع استراح به.

ومعني ذلك أنه لا يشرع الاجتماع لهذا السماع المحدث، ولا يؤمر به، ولا يتخذ ذلك دينًا وقربة. فإن القرب والعبادات إنما تؤخذ عن الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- فكما أنه لا حرام إلا حرمه الله، فلا دين إلا ما شرعه الله.

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[2]، ولهذا قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

---

(١) سورة الشورى: الآية رقم ٥٢, ٥٣.

(٢) سورة الشورى: الآية رقم ٢١.

ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، فجعل محبتهم لله موجبة لمتابعة رسوله وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الله لهم.

قال أبي بن كعب ﷺ: «عليكم بالسبيل والسنة، فإن ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله تعالى فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحاتت عنه خطاياه كما يتحات الورق اليابس عن الشجر، وما من عبد علي السبيل والسنة ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبدًا، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم إن كانت اقتصاداً أو اجتهاداً على مناهج الأنبياء وسنتهم». وهذا مبسوط في غير هذا الموضوع.

فلو كان هذا مما يؤمر به ويستحب، وتصلح به القلوب، للمعبود المحبوب لكان ذلك مما دلت الأدلة الشرعية عليه.

ومن المعلوم: أنه لم يكن في القرون الثلاثة المفضلة. التي قال فيها النبي ﷺ: **«خير القرون قرني الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»**.

لا في الحجاز، ولا في الشام، ولا في اليمن، ولا في العراق، ولا في مصر، ولا في خراسان، أحد من أهل الخير والدين يجتمع علي السماع المبتدع لصلاح القلوب.

ولهذا كرهه الأئمة، كالإمام أحمد وغيره، وعند الشافعي هو من إحداث الزنادقة، حين قال: «خلفت ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة، يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن».

وأما ما لم يقصده الإنسان من الاستماع، فلا يترتب عليه نهي ولا ذم. باتفاق الأئمة، ولهذا. إنما يترتب الذم والمدح علي الاستماع، لا على السماع، فالمستمع للقرآن يثاب عليه، والسامع له بدون قصد وإرادة، لا يثاب علي ذلك؛ إذ الأعمال بالنيات.

وكذلك ما ينهي عن استماعه من الملاهي، لو سمعه السامع بدون قصده لم يضره ذلك . فلو سمع السامع بيتًا يناسب بعض حاله فحرك ساكنه المحمود وأزعج قاطنه المحبوب، أو بمثل ذلك، ونحو هذا، لم يكن هذا مما ينهي عنه، وإن كان المحمود الحسن حركة قلبه

---

(١) سورة آل عمران: الآية رقم ٣١.

التي يحبها الله ورسوله إلى محبته؛ التي تتضمن فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله، كـــالذي احتاز ببيت فسمع قائلاً يقول:

كـــــل يـــــــوم تتلـــــــون غـــــير هـــــذا بـــــك أجمـــــد

فأخذ منه إشارة تناسب حاله، فإن الإشارات هي من باب القيـــــاس، والاعتبـــار، وضرب الأمثال. ومسألة السماع كبيرة منتشرة قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضوع.

والمقصود هنا: أن المقاصد المطلوبة للمريدين ، تحصل بالسماع الإيمانى القـــرآنى النبوى الديني الشرعي، الذي هو سماع النبيين، وسماع العالمين، وسماع العارفين، وسمـــــاع المؤمنين، قـــــال الله تعـــالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾[1]، وقال تعـــالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[2].

وقال تعـــالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[3]، وقال تعـــالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[4]، وقال تعـــالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[5].

وكما مدح المقبلين على هذا السماع، فقد ذم المعرضين عنه، في مثل قولـــه تعـــالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا

---

(١) سورة مريم: الآية رقم ٥٨.

(٢) سورة الإسراء: الآيات رقم ١٠٧-١٠٩.

(٣) سورة المائدة: الآية رقم ٨٣.

(٤) سورة الأنفال: الآية رقم ٢.

(٥) سورة الزمر: الآية رقم ٢٣.

هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[5] ومثل هذا كثير في القرآن.

وهذا كان سماع سلف الأمة، وأكابر مشايخها ، وأئمتها، كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشايخ، كإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، وأمثال هؤلاء.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي موىي الأشعري: يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ، وهم يسمعون ويبكون. وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ والباقي يستمعون.

وقد ثبت في الصحيح: أن النبي ﷺ مر بأبي موسى الأشعري، وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال: "لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود".

وقال: «مررت بك البارحة وأنت تقرأ، فجعلت أستمع لقراءتك، فقال: لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا»، أي: لحسنته لك تحسينا. وقال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم».

---

(١) سورة لقمان: الآية رقم ٦، ٧.

(٢) سورة الفرقان: الآية رقم ٧٣.

(٣) سورة المدثر: الآية رقم ٤٩، ٥٠.

(٤) سورة الأنفال: الآية رقم ٢٢، ٢٣.

(٥) سورة فصلت: الآية رقم ٢٦.

وقال : «لله أشد أذنا إلي الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلي قينته».

أشد أذنا، أي: استماعا، كقوله تعالى: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [1] أي: استمعت. وقال ﷺ : «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت، يتغنى بالقرآن يجهر به»، وقال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».

ولهذا السماع من المواجيد العظيمة، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة، ما لا يسعه خطاب، ولا يحويه كتاب. كما أن لتدبر القرآن، وتفهمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان.

ومما ينبغي التفطن له: أن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [2].

قال طائفة من السلف: ادعي قوم علي عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله تعالى، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [3] فبين سبحانه أن محبة الله توجب اتباع الرسول، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله، فإن هذا الباب يكثر فيه الدعاوى والاشتباه.

ولهذا يروى عن ذي النون المصري أنهم كانوا تكلموا في مسألة المحبة عنده، فقال: اسكتوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها.

وقال بعضهم: (من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد).

---

(١) سورة الإنشقاق: الآية رقم ٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية رقم ٣١.

(٣) سورةآل عمران: الآية رقم ٣١.

وذلك لأن الحب المجرد ودعواه تتبسط النفوس فيه حتى تتوسع في أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله. حتى قالت اليهود والنصارى: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾[1]، ويوجد في مدعي المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية، ولهذا قرن الخشية بها في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾[2].

وكان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية، لما في ذلك من الفساد، الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة وما وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال، أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصرفة بالكلية، حتى صار المنحرفون صنفين:

صنف يقر بحقها وباطلها، وصنف: ينكر حقها وباطلها، كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه.

والصواب: إنما هو الإقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة، والإنكار لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنة.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[3]، فاتباع سنة رسول الله ﷺ وشريعته باطنا وظاهرًا، هي موجب محبة الله، كما أن الجهاد في سبيله وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه. هو حقيقتها، كما في الحديث: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله**».

وفي الحديث: «**من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**».

وكثيرًا ممن يدعي المحبة وهو أبعد من غيره عن اتباع السنة، وعن الأمر بالمعروف وعن النهي عن المنكر، والجهاد في سبيله، ويدعي مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره، لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيره، ولا غضب لله.

---

(١) سورة المائدة: الآية رقم ١٨.

(٢) سورة ق: الآية رقم ٣٢-٣٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية رقم ٣١.

وهذا خلاف لما دل عليه الكتاب والسنة. ولهذا جاء في الحديث المأثور: «**يقـــول الله تعالى يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم في ظلى، يوم لا ظل إلا ظلى**». فقوله: «**المتحابون بجلال الله**» تنبيه على ما في قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه مع التحـــاب فيه، وبذلك يكونون حافظين لحدوده، دون الذين لا يحفظون حدوده، لضعف الإجـــلال في قلوبهم ، وهؤلاء هم الذين جاء فيهم الحديث: «حقت محبتي للمتحابين في، وحقت محبـــتي للمتجالسين في، وحقت محبتي للمتزاورين فى، وحقت محبتي للمتباذلين في».

والأحاديث في المتحابين في الله كثيرة، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ من حديـــث أبي هريرة قال: «سبعة يظللهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله واجتمعا علي ذلك وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينـــه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقـــال: إني أخاف الله رب العالمين».

وأصل المحبة: هو معرفة الله سبحانه ولها أصلان:

أحدهما: وهو يقال له: محبة العامة، محبته لأجل إحسانه إلى العباد وهذه المحبة علـــي هذا الأصل لا ينكرها أحد، فإن القلوب مجبولة علي حب من أحسن إليها، وبغـــض مـــن أساء إليها، والله سبحانه وتعالى هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة.

فإنه المتفضل بجميع النعم، وإن جرت بواسطة؛ إذ هو ميسر الوســـائط، ومسـبب الأسباب. ولكن هذه المحبة في الحقيقة. إذ لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه، فما أحـــب العبد في الحقيقة إلا نفسه وكذلك كل من أحب شيئًا لأجل إحسانه إليه، فما أحـــب في الحقيقة إلا نفسه. وهذا ليس بمذموم بل محمود.

وهذه المحبة هي المشار إليها بقوله ﷺ: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبـوني لحب الله وأحبوا هل بيتي بحبي**». والمقتصر علي هذه المحبة هو لم يعرف من جهة الله مـــا يستوجب به أنه يحبه، إلا إحسانه إليه.

وهذا كما قالوا: إن الحمد لله على نوعين: حمد هو شكر، وذلك لا يكون إلا علـــى نعمته، وحمد هو مدح وثناء عليه ومحبة له؛ وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه. فكذلك الحب،

فإن الأصل الثاني فيه: هو محبته لما هو له أصل وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله وما من وجه من الوجوه التي يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته، إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه. حتى جميع مفعولاته. إذ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، ولهذا استحق أن يكون محموداً علي كل حال.

ويستحق أن يحمد على السراء والضراء، وهذا أعلى، وأكمل وهو حب الخاصة، وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر إلي وجهه الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك، حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطاق، وهم السابقون كما في الحديث في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﷺ قال: **«مر النبي ﷺ بجبل يقال له: جمدان فقال: سيروا، هذا جمدان سبق المفردون. قالوا: يا رسول الله، من المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»**.

وفي رواية أخري قال: **«المستهترون بذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافًا»**.

وفي حديث هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «موسى يا رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأي عبدك أعلم؟ قال: الذي يطلب علم الناس إلى علمه ليجد كلمة تدله على هدي أو ترده عن ردى. قال: فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم على نفسه كما يحكم على غيره، ويحكم لغيره كما يحكم لنفسه».

فذكر في هذا الحديث الحب، والعلم، والعدل، وذلك جماع الخير.

ومما ينبغي التفطن له، أنه لا يجوز أن يظن في باب محبة الله تعالى ما يظن في محبة غيره، مما هو من جنس التجني، والهجر، والقطيعة لغير سبب، ونحو ذلك مما قد يغلط فيه طوائف من الناس حتى يتمثلوا في حبه بجنس ما يتمثلون به في حب من يصد ويقطع بغير ذنب، أو يبعد من يقترب إليه. وإن غلط في ذلك من غلط من المصنفين في رسائلهم حتى يكون مضمون كلامهم إقامة الحجة على الله، بل لله الحجة البالغة.

وقد ثبت فى «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ - عن النبى ﷺ أنه قال: **«من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، ومن تقرب إلي**

شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة». وفي بعض الآثار يقول الله تعالى: «أهل ذكرى أهل مجالستي، وأهل شكرى أهل زيارتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي: إن تابوا فأنا حبيبهم؛ لأن الله تعالى يحب التوابين، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب حتى أطهرهم من المعايب».

وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾[1]، قالوا: الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم أن ينقص من حسنات نفسه، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾[3].

وفي الحديث الصحيح عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: يا عبادى، أني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا.**

يا عبادى، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم.

يا عبادى، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادى، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم.

يا عبادى، إنكم تذنبون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادى، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادى، لو أن أولكم وأخركم وآنسكم وجنكم كانوا على أتقي قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكى شيئًا.

يا عبادى، لو أن أولكم وأخركم وأنسكم وجنكم كانوا عل أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئًا.

---

(١) سورة طه: الآية رقم ١١٢.

(٢) سورة النحل: الآية رقم ١١٨.

(٣) سورة هود: الآية رقم ١٠١.

يا عبادى، لو أن أولكم وأخركم وأنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر.

يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

ولهذا كان سيد الاستغفار ما رواه البخاري في «صحيحه» عن شداد بن أوس قال رسول الله ﷺ: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على وأبوء لك بذنبى، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها إذا أصبح موقنًا بها فمات في يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقنًا بها فمات ليلته دخل الجنة**».

فالعبد دائمًا بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج إلى استغفار، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائمًا، فإنه لا يزال يتقلب في أنعم الله وآلائه ولا يزال محتاجًا إلى التوبة والاستغفار.

ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين محمد ﷺ يستغفر في جميع الأحوال.

وقال ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «**يا أيها الناس، توبوا إلي ربكم فإني أتوب إلي الله في اليوم مائة مرة**».

وقال عبد الله بن عمر: «كنا نعد رسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم، مائة مرة ».

وقال: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وفي «صحيح مسلم» أنه قال: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة». ولهذا شرع الاستغفار في خواتيم الأعمال.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾[1]، (وقال بعضهم: أحيوا الليل بالصلاة). فلما كان وقت السحر أمروا بالاستغفار.

وفي الصحيح: أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا، وقال: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**».

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

وقد أمر الله نبيه بعد أن بلغ الرسالة وجاهد في الله حق جهاده، وأتى بما أمر الله، مما لم يصل إليه أحد غيره، فقال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾[3].

ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد، والاستغفار كما قال تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾[6].

ولهذا جاء في الحديث: «**يقول الشيطان: أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار**».

---

(١) سورة آل عمران: الآية رقم ١٧.
(٢) سورة البقرة: الآية رقم ١٩٨، ١٩٩.
(٣) سورة النصر: الآية رقم ١-٣.
(٤) سورة هود: الآية رقم ١-٣.
(٥) سورة فصلت: الآية رقم ٦.
(٦) سورة محمد: الآية رقم ١٩.

وقد قال يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وكان النبي ﷺ إذا ركب دابته يحمد الله ثلاثًا، ثم يكبر ثلاثًا، ويقول: «**لا إله إلا أنت سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي**».

وكفارة المجلس التي كان يختم بها المجلس والوضوء: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

(١) سورة الأنبياء: الآية رقم ٧٨.

المصادر والمراجع

١ ــ أبو بكر الآجرى: أخلاق العلماء، تحقيق الدكتور/ أحمد السايح، ط الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.

٢ ــ أبو حامد الغزالى، إحياء علوم الدين، ط القاهرة.

٣ ــ ابن الأثير: أسد الغابة، ط كتاب الشعب، القاهرة.

٤ ــ ابن كثير: البداية والنهاية، ط مكتبة المعارف، بيروت.

٥ ــ ابن تيمية: شرح فتوح الغيب للإمام عبد القادر الجيلانى، تحقيق الدكتور/ أحمد السايح، تحت الطبع.

٦ ــ ابن تيمية: السلوك، مجموع الفتاوى.

٧ ــ ابن تيمية: التصوف، مجموع الفتاوى.

٨ ــ الدكتور/ أحمد السايح: السلوك عند الحكيم الترمذى، ط دار السلام، القاهرة.

٩ ــ الدكتور/ أحمد السايح: منازل العباد للحكيم الترمزى، ط دار الثقافة. القاهرة.

١٠ ــ الدكتور/ أحمد السايح: كيفية السلوك إلى رب العالمين، ط الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.

١١ ــ الدكتور/ أحمد السايح: هذا هو الإسلام، ط دار الثقافة، قطر.

١٢ ــ أبو القاسم القشيرى: الرسالة القشيرية، ط دار الكتب الحديثة، القاهرة.

١٣ ــ أبو محمد اليافعى: نشر المحاسن الغالية، ط البابى الحلبى، القاهرة.

١٤ ــ ابن القيم: زاد المعاد، ط دار الفكر العربى، بيروت.

١٥ ــ الإمام الصالحى: سبل الهدى والرشاد، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.

١٦ ــ الإمام عبد الوهاب الشعرانى: الطبقات الكبرى، ط الحلبى. القاهرة.

١٧ ـــ ابن حجر العسقلانى: فتح البارى شرح صحيح البخارى. ط القاهرة.

١٨ ـــ أبو طالب المكى: قوت القلوب، ت. محمود الغراب، ط دار صادر، بيروت.

١٩ ـــ ابن العربى، شرح كلمات الصوفية، ت. محمود الغراب، ط دمشق.

٢٠ ـــ ابن العربى: شرح فصوص الحكم، ت. محمود الغراب، ط دمشق.

٢١ ـــ ابن العربى: الإنسان الكامل، ت. محمود الغراب، ط دمشق.

٢٢ ـــ ابن العربى: الطريق إلى الله، ت. محمود الغراب، ط دمشق.

٢٣ ـــ ابن العربى: الفقه عند الشيخ الأكبر، ج. محمود الغراب، ط دمشق.

٢٤ ـــ ابن العربى: الحب والمحبة الإلهية، جمع محمود الغراب، ط دمشق.

٢٥ ـــ ابن العربى: تنبيهات على علو الحقيقة، ط عالم الفكر.

٢٦ ـــ ابن العربى: التنزلات الليلية فى الأحكام الإلهية، ط عالم الفكر. القاهرة.

٢٧ ـــ ابن العربى: العجالة، ط عالم الفكر، القاهرة.

٢٨ ـــ ابن العربى: كتاب الباء، ط مكتبة القاهرة.

٢٩ ـــ ابن العربى: رسالة القسم الإلهى، ط عالم الفكر، القاهرة.

٣٠ ـــ ابن العربى: رسالة فى معنى نقطة الدائرة، ط عالم الفكر، القاهرة.

٣١ ـــ ابن العربى: كتاب الكنه فيما لابد للمريد منه، ط مكتبة صبيح، القاهرة.

٣٢ ـــ ابن العربى: ذخائر الأعلاق، ط الشيخ الكردى، القاهرة.

٣٣ ـــ الإمام العلوى المالكى، مفاهيم يجب أن تصحح، ط أوقاف دبى. الإمارات.

٣٤ ـــ السهروردى: عوارف المعارف، ط. القاهرة.

٣٥ ـــ السمرقندى: تنبيه الغافلين، ط دار المعرفة، بيروت.

٣٦ ـــ الشعرانى: تنبيه الغافلين، تحقيق الدكتور/ أحمد السايح، المستشار توفيق على وهبة تحت الطبع.

٣٧ ـــ الشيخ يوسف خطار: الموسوعة اليوسفية، ط دمشق.

٣٨ ـــ د/ سعاد الحكيم: المعجم الصوفى، ط بيروت.

٣٩ ـــ د/ مجدى إبراهيم: التصوف السنى، ط مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

٤٠ ـــ الشيخ/ نجم الدين الداية، فلسفة التصوف للشيخ نجم الدين الدايـــة، ط إيـــتراك. القاهرة.

٤١ ـــ أبو بكر الرازى: منازل السائرين، ط دار سعاد الصباح. القاهرة.

٤٢ ـــ الهجويرى: كشف المحجوب، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،القاهرة.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

